# البناء الفني للسورة الكريمة

السورة الكريمة يقوم بناؤها الفني على حُبكة KNOT الرؤيا. قال تعالى ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إني رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمر رأيتهم لي ساجدين قال يا بُنيَّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً، إنَّ الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين﴾ [٤، ٥].

يلاحظ المتأمِّل للسِّياق أنَّ لُغزاً يطرح نفسه، وهو تفسير الرؤيا. ثم يُفصَّل الموضوع ويتوزع على مشاهد مختلفة وبلاد متباعدة وسنوات عديدة. وفي ذلك كله سيظلُّ النابه يُحسُّ أن حمأة التفاصيل ليست هي نهاية المطاف وأن لُغز الرؤيا لا بُدَّ وأن ينكشف. ويجد القارىء في الآية المئة عطفاً على هذا اللغز وانكشافه من داخل الانكشاف التلقائي ﴿ورفع أبويه على العرش وخرُّوا له سُجَّداً، وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبلُ قد جعلها ربِّي حقًّا . . . الآية﴾[. . ١]. وعند ذلك يشعر المتتبع أن الحلقة قد استدارت وأن الموضوع قد بلغ غايته[1].

والموضوع العام في السُّورة هو في قُوة الجبل والإحكام بحيث أن كل

---

(١) انظر: كتابنا: فن الكتابة والتعبير. ط ١ (مكتبة الأقصى ـ عمَّان): ١٩٨١م ص ٤١.

فقـرة فيه تهيىء للتي تلي ويتبين من صدره خاتمتـه ـ وهـو في المقاييس البلاغية عند العرب.

يقول الجاحظ: قال إسحاق بن حسان بن قوهي:

(لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحدٌ قط. سُئل ما البلاغة؟ قال: البـلاغـة اسم جامـع لمعـان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السُّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداء... فعـامَّـةُ ما يكـون من هذه الأبـواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة... وليكن في صدر كلامك دليلٌ على حاجتك، كما أنَّ خير أبيات الشعر البيتُ الذي إذا سمعت صدره عرفتَ قافيته)[1].

في الوقت الذي تكون هذه الرؤيا الحُبكة الكبرى التي تشدُّ إليها سائر خيوط القصـة، فإن هنـاك حُبكاتٍ صُغرى ـ إن جاز التعبير ـ تقوم بشد الخيوط بعضها إلى بعض. أو قُل هي نقاط تعتيم فنِّي كانت تسعى إلى نقاط إضاءة فنية. إن عبور هذه الحُبكات أو النقاط الفنية يمنحنا أُنساً في تذوق السُّورة الكريمة ما كان أحسن وأجمله.

ولو أنَّا شئنا أن نتبين ملامح هذه الحبكات الصغرى أو قل أردنا أن نتبين ملامح «الأبطال» الصغار التي ساعدت في تطوير الأحداث بطريقة فيها نقاط تعتيم واضاءة لكانت كالآتي:

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون. ط ٤ جـ ١ ص ١١٥ ـ ١١٦.

**١ـ أولاً : الشيطان :**

يُلقي الضوء على الشيطان بطريقة صريحة حين يستشعر يعقوب عليه السلام بألمعيته وحدسه والعلم الذي آتاه الله تعالى دوراً كبيراً يلعبُه «الشيطان» كي يحول دون عُروج هذا الصَّبي الصغير في معارج الطاعة الربانية ودون أن يسلك في مسالك النبوة.

قال تعالى ﴿قال يا بُنيَّ لا تقصُص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً، إنَّ الشيطان للإنسان عدوٌّ مُبين، وكذلك يجتبيك ربُّك ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إنَّ ربَّك عليم حكيم﴾ [٥ـ٦].

وهذا انتصُّ القرآني الكريم بالغة منه الدلالات التي ترسم مشاهد القصة ووقائعها وخطوط سيرها.

فقول يعقوب : يا بُنيَّ : اشارة إلى أن يوسف هو في سِنٍّ مبكِّرة ومن ثم فهو على عتبة محطات كثيرة متباعدة زماناً ومكاناً : الاجتباء. تأويل الأحاديث. إتمام النعمة. سلك طريق إبراهيم واسحق.

وإذن فتصغير الابن لها دلالتها على السِّن المبكرة إضافة إلى التودد والمحبَّة.

فلو لم يكن ليوسف من «عتاد» ذهني وهو في «غيابة الجُبِّ» إلا ما كان قاله يعقوب في هذا الحديث الوُدِّي عن خط سيره في المستقبل لكفاه ذلك ثقةً بأن الله تعالى معه وأنه سيتكفل بحفظه «يوسف».

وقول يعقوب : ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾ إشارة إلى ما يتوجه يعقوب بفراسته وألمعيته من إخوة يوسف تجاه يوسف. ولو كان هذا التوجس عابراً

لما كان يعقوب قد وضعه في مثل هذا التوكيد اللفظي والتوكيد المعنوي. وكان حين أردف يعقوب قائلاً ﴿إن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين﴾ ـ قد بين أنَّ أعمال الكيدِ التي يقوم بها الناسُ ـ قريبهُم وبعيدُهم ـ تجاه الحقِّ والصِّدق والتقوى إنما الشيطان هو «بطلها» الحقيقي.

وهذه عَلاقة بالغة الدلالة لرصد «بطولات» الشيطان في كلِّ مواطن التأزم والكيد في القصَّة وفي تسلسل الحوادث.

وغير خافٍ أن «السَّرج» الذي يركبه الشيطان من الإنسان إنما هو في الأعم الأغلب النَّفسُ.

وهكذا يبرز الشيطان من وراء ستار «بطلا» في الأدوار الآتية:

١ـ ﴿إذ قالوا ليوسفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا مِنَّا ونحن عُصبةٌ إنَّ أبانا لفي ضلال مبين﴾ [٨].

وإذن يكون الشيطان قد دخل إليهم من خلال افتراق الأمهات ووجود الضرائر. ومع أنَّ التفاوت في الميل إلى الأبناء قد كانت وراءه دوافع آنيَّة منها صغر السن والشيخوخة وملامح الذكاء إلاَّ أن ذلك ما كان ليصل إلى هذه الدرجة من الاستنتاج الخاطىء والمتطرف ـ لولا الشيطان. فالشيطان هو «بطل» هذه المقولة.

٢ـ ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سَوَّلَت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ [١٨].

وإذن فالشيطان قد ركب هذه المرَّة النفوس فسوَّل لها أمراً. وإذن فبطل هذا اللغز الذي يسعى إلى انكشاف هو الشيطان.

ولمَّا كان يعقوبُ قد استعان على الشيطان بالله؛ فإنَّ المتذوق للبناء القصصي فنياً لا يعوزه كبير ذكاء أن يتبين أنَّ يعقوب لن يختفي من مسلسل

الأحداث ما لم تنتصر استعانتُه أولاً، وما لم ينكشف له هذا «الأمر» الذي جاء بصيغة التنكير (أمراً).

وهذا الرَّبط لو لم يكن غيرُه قد قام في ذهن يعقوب قد كان كافياً له (يعقوب) ليقول في أحلك ساعات الحزن والكآبة ﴿قال إنما أشكو بثيِّ وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ★ يا بَنيَّ اذهبوا وتحسسوا من يوسفَ وأخيه ولا تيأسوا من رَّوحِ الله إنه لا ييأسُ من رَّوحِ الله إلاَّ القوم الكافرون﴾ [٨٦، ٨٧].

٣ـ ﴿قال بل سَوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى اللهُ أن يأتيني بهم جميعاً إنَّه هو العليم الحكيم﴾ [٨٣].

وإذن فالشيطان قد ركب هذه المرَّة أيضاً النفوس فسوَّل لها أمراً. وإذن فبطل هذا اللغز هو بطل ذاك اللغز هو الشيطان. وإذن فضياع الأخ من الأب وضياع يوسف إنما هما وجهان لعملة واحدة أو قل هي خطة واحدة في البداية والنهاية وبطلها الشيطان.

٤ـ قصَّة مُراودة يوسف عن نفسه وملاحقته من قِبَل امرأة العزيز وبتحريش من نسوة بعض المتنفذين في المدينة. وهذه القصة كان حتماً بطلَها (بالفتح) الشيطان (بالرفع) إذ إنَّ «الخطَّ البيانيَّ» لحياة امرأة العزيز وطريقة تفكيرها، وموقعها الاجتماعي، ومركزها الوظيفي قد كان يُؤذن أن تكون المرأةُ ودودةً، رحيمة، ذكية القلب والروح، طائعة لزوجها، راجحة العقل، متزنة الشخصية. ولكنَّ الانكسار الحادَّ المفاجىء في هذا الخط يُشير حتماً إلى «أصابع» خفية قد كانت وراءَ هذا الانكسار.

ولو أنا شئنا تلمُّس ظلال هذه المعاني التي ارتبطت بامرأة العزيز في خطِّها البياني الأول كما يعرضه النَسقُ القرآني الكريم لكان التالي:

أ ـ قال تعالى ﴿وقال الذي اشتراه من مِصرَ لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مَكَّنا لِيوسفَ في الأرض ولنُعلِّمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون ★ ولمَّا بَلغَ أشُدَّهُ آتيناه حُكماً وعِلماً، وكذلك نجزي المحسنين ★ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه . . . الآية﴾ [٢١ ـ ٢٣].

وحتماً فإنَّ المرأةَ كانت قد استجابت لهذا الطلب فأكرمت مثواه، وطيَّبت إقامته. يُنبيك بذلك قولهُ تعالى ﴿وكذلك﴾.

و﴿كذلك﴾ هذه مفتاحٌ لسنوات كثيرة من رغد العيش وخَفض الحياة ونعمة البال. وهو أمرٌ يخبر به وجودُ النتيجة وهي هذه النشأة المستقرَّة والفُرَص الكثيرة المواتية. ولو لم يكن من امرأة العزيز هذه الاستجابة الكريمة لما أُتيح ليوسف كي يتمكن في الأرض وكي يبلغ أشُدَّه مع النمو العقلي والادراكي والاكتسابي. إذن لكان وضعه قلقاً وحياته شقاوة.

ب ـ قول العزيز ﴿يُوسفُ أعرض عن هذا، واستغفري لذنبك إنَّك كُنت من الخاطئين﴾ [٢٩].

وهي اشارة إلى أنَّ المرأة قد كانت على درجة عالية من الفهم والمودَّة لزوجها. إنَّ حُسنَ أخلاقها هو الذي دفع زوجَها ليخاطبها مثل هذا الخطاب الرائق اللطيف مع قوة الحق والمنطق ﴿واستغفري لذنبك إنَّك كنت من الخاطئين﴾.

جـ ـ ﴿قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كانَ قميصُه قُدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين ★ وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصَّادقين ★ فلما رأى قميصَه قُدَّ من دُبُرٍ قال إنَّه من كيدكُنَّ إنَّ كيدكنَّ عظيم﴾ [٢٦ ـ ٢٨].

إذن فقد كان لهذه المرأة أهلٌ من ذوي التعقل والتبصر والحكمة والفطنة. ولم تمنع هذا الشاهِدَ (بالفتح) من أهلها خرابُ (بالرفع) بيتها، وضياع حياتها ومصيرها. وهذا الفضلُ لا يكون في المجتمعات الجاهلية إلاَّ إذا كان أهلُه على درجة عالية من مكارم الأخلاق والانتصار لحقٍّ مهما كانت مؤونة الحقِّ ثقيلة. وإذن فالمرأة واقعُها الاجتماعي قد كان ينأى بها من أن تكون فريسةً للشهوات في مثل هذا الموقف الطارىء. وأنه من خلال هذه القرينة الواضحة دلالاتها لنلغي بكل ثقة وطمأنينة ما ترسَّمه الدكتور أحمد عبدالحميد يوسف من أنَّ مجتمع الحكام في مصر في تلك الفترة كان واغلاً في الفساد والانحلال حيث يقول: (صورة دقيقة لمجتمع فاسد آثم، تصور ما كان عليه مجتمع الدخلاء من حكام الهكسوس من فساد وانحلال، ولو لم يكن لدينا عن مصر في ذلك الزمان سوى تلك القصة لاتخذناها وحدها دليلاً على مجتمع يسوده الأجانب والغرباء، ولنفيناها عن المصريين ونسبناها إلى ذلك المجتمع الأجنبي مطمئنين، لأنها إنما تخالف عن طبيعة الأشياء في مصر وتخرج عن سليقة المصري بما ركب فيه من الأنفة والحمية والكرامة والكبرياء)[1].

أمَّا ما يدافع به الدكتور أحمد عبدالحميد يوسف عن مجتمعات مصر قبل الإسلام فما أظنُّه في حاجة إلى مثل هذا الدِّفاع لأن مقاييس المجتمعات لم تكن إسلامية وبالتالي فلا يصحُّ الاعتزاز بغير الإسلام سواء أكان المصريون القدماء هم أجداد الدكتور أحمد عبدالحميد يوسف على الحقيقة أو لم يكونوا أجدادَه يَقيناً.

وها هو الشيطان يُعلن عن نفسه إذ جاز التعبير في اعتراف امرأة العزيز «الكامل» أنَّ النَّفس أمَّارة بالسوء ﴿. . . قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحَقُّ أنا راودته عن نفسه وإنَّه لمن الصَّادقين ★ ذلك ليعلَم أني لم أخُنه

---

(١) مصر في القرآن والسُّنة. سلسلة اقرأ عدد ٣٧٣ (دار المعارف بمصر: ١٩٧٣م)

بالغيب وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين ★ وما أُبرِّئُ نفسي، إنَّ النَّفس لأمَّارة بالسُّوء إلَّا ما رحم ربي، إنَّ ربي غفور رحيم﴾ [٥١ ـ ٥٣].

وحتماً ما كانت امرأة العزيز لتقول مثل هذه الاعترافات الخالصة لو لم تكن من «معدنٍ» انساني رفيع المستوى. إذن فالأصل أنها ذات استقامة ونفس عالية ولكن هذا التصرُّف الغريب إنما كان أمراً طارئاً سَوَّلت به النَّفس.

٥ـ وها هو الشيطان يخوض حرباً «بطولية» إن جاز التعبير يَحُولُ فيها دون تذكر يوسف في مواطن النعمة. ﴿وقال للذي ظَنَّ أنه ناجٍ منهما اذكرني عند رَبِّك فأنساه الشيطانُ ذِكرَ رَبِّه فلبث في السِّجن بضع سنين﴾ [٤٢].

وإذن يكـون الشيطان قد نجح في إعاقة مسيرة يوسف عليه السلام بضعَ سنين من خلال ثغرة النِّسيان.

٦ـ ثم ها هو يوسف ذاته يعلن انكشاف هذا الدَّور الذي قام به الشيطان ونهـاية خطواتـه ووساوسه وبطولاته (الشيطان) ﴿. . . وقد أحسنَ بي إذ أخرجني من السِّجن وجاء بكم من البَدو من بعد أن نزغَ الشَّيطان بيني وبين إخوتي. . . الآية﴾ [١٠٠].

**ثانياً ـ القميص:**

ولعلَّ هذا القميص كان قد لبسه اسحقُ ويعقوب على نحوٍ له مباركة سمـاوية وشـارة الهية كمثل ما كان التابوت على نحوٍ أو آخر. ويبدو أن يعقوب كان قد خلع هذا القميص على يوسف تفاؤلاً بما رآه فيه من مخايل الذكاء. ويبدو أن هذا القميص قد كان مما يلي الجسد.

وأول ما يطالعنا القميص هو في قوله تعالى ﴿وجاءوا على قميصه بدَمٍ

كذب قال بل سَوَّلت لكم أنفسُكم أمراً فصبرٌ جميل والله المستعانُ على ما تصفون﴾ [١٨].

وإذن يكون هؤلاء الأخوة قد أخذوا القميصَ الخارجي وبقي قميصُه الداخلي لاصقاً بجسده. فلما أن رأى يعقوبُ القميصَ الخارجي هو الذي عليه الدم لم يُصَدِّق أن يوسف قد أكله الذئب إذ كيف يأكل الذئب يوسف بالكامل ولا يكون تقطيعه (الذئب) لجسد يوسف وملابسه بالكامل؟ وهذا أعطى يعقوب انطباعاً أن قميص النبوة لم يُمسَّ بسوء. وإذن فيوسف والقميص الداخلي إنما هما في مأمن وأمان. ولعلَّ هذا ما يفسر كيف أن يعقوب كان متأبياً على كلِّ الروايات التي قُدِّمت، وكان دائم التطلع إلى «عودةٍ ظافرة» ليوسف وللقميص أيضاً.

ثم ها هي قصَّة القميص تطفو إلى سطح الأحداث مرَّةً أخرى. هي قد غلَّقت الأبواب ودعته إلى الفراش فلم يستجب وكان متأبياً. ثم يبدو أن المرأة قد تجاوزت الحدود في التعري والمجاذبة لدرجة بدا عليه أنه قد وُضع في مناخ الاغواء. وهو أمر قد كان متوقعاً ـ من الناحية الجسدية ـ بحكم ما يُحدِّثنا القرآن الكريم من أنه أي يوسفَ قد ﴿بَلَغَ أشُدَّه﴾ [٢٢]. ولو لم يكن يوسفُ قد ﴿همَّ بها﴾ [٢٤] ـ لمَّا ظلَّت شخصيةُ يوسف الرجولية تحتفظ بخصائصها التي أراد النَسَقُ القرآني الكريم إظهارَها.

وإذن، فقد كان استعدادُ يوسف الجسماني «يؤهِّله» للمواثبة لو لم يكن برهان من ربِّه وصرف السُّوء والفحشاء. وهو استعداد كان «يضغط» على أعصاب يوسف حين كان يخشى أن يضعف أمام مطاردات امرأة العزيز وتحريش النسوة لها ﴿قال ربِّ السِّجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه، وإلاَّ تصرِف عني كيدَهُنَّ أصب إليهنَّ وأكن من الجاهلين﴾ [٣٣].

لقد وجد يوسف نَفسَه يهمُّ مقبلاً على المرأة ثم فجأة ينتفض متأبيّاً.

فهل رؤية القميص الداخلي الذي يلامس جسده (قميص النبوة) قد أعاد إليه أمانة السِرِّ مع يعقوب واسحق وابراهيم؟ يبدو أن لا شيء غير هذا[1]. يُعزِّز هذا الاستنتاج (بالفتح) دورانُ التنويه بالقميص في حكاية الحكومة بين الخصمين ثم حكاية البشير ورجوع البصر لدى يعقوب.

فأما الأولى، ففي السِّياق ﴿واستبقا الباب وقَدَّت قميصَه من دُبُرٍ وألفيا سيِّدهَا لدى الباب، قالت ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً إلاَّ أن يُسجن أو عذابٌ أليم ★ قالَ هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصُه قُدَّ من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين ★ وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين ★ فلما رأى قميصَه قُدَّ من دُبُرٍ قال إنه من كيدكن إنَّ كيدكن عظيم﴾ [٢٦ ـ ٢٨].

فهل دوران لفظة القميص أربع مرات في هذا السِّياق لا تعكس أهمية منوطة بهذا القميص؟ إنَّ الذي يعرف أساليب العرب في القول لا يعوزه كبيرُ اجتهاد كي يتبين الدور «البطولي» الذي «خاضه» القميص في هذه

---

(١) انظر في تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد هَمَّت به وهَمَّ بها لولا أن رأى برهان رَبِّه... الآية﴾:

١ـ تفسير الطبري.

٢ـ تفسير ابن كثير.

٣ـ أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) جـ ٩ (دار احياء التراث العربي. بيروت: ١٩٦٦). ص ١٦٦ ـ ١٦٧

٤ـ أثيرالدين أبو عبدالله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيَّان الأندلسي الغرناطي الجياني: البحر المحيط (مكتبة ومطابع النصر الحديثة. الرياض. بدون) جـ ٥ ص ٢٩٣.

٥ـ ناصرالدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي.
البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) (دار الجيل. بيروت (مصور عن نسخة المطبعة العثمانية. القاهرة: ١٣٢٩هـ) ص ٣١٢.

«المعركة الجانبية». وخرج القميصُ هذه المرَّة أيضاً «منتصراً». فهل كان القميص الذي قُدَّ من دُبُرٍ هذه المرَّة هو قميص النبوَّة صاحب السِرِّ؟ أغلب الظن أن نعم. إن سِياقَ الآيات يحدِّث (بتضعيف الدال المهملة وكسرها) به. فإن كان يُوسُفُ قد هَمَّ بالمرأة وحلَّ سراويله، أو حل الهميان أو تَكَّة السراويل أو جلس منها مجلس الرجُل من امرأته، أو قعد بين رجليها ينزع ثيابه[1]؛ فحتماً كان قد أصبح في القميص الذي يلي الجسد. ومن ثمَّ كان أمرُ قَدِّه إلى نصفين سهلاً بحكم ما كان من خيوط قديمة ونسيج قد تقادم عليه العهد.

ولو أنَّ امرأة العزيز وقد أصرَّت بعد ذلك بحكم ما دُفعت إليه من مضايق وإرهاصات كانت قد تعاملت مع قميص غير الذي كان على جسده (وكان به ضنيناً) لربما وهي تضمر الالحاح عليه ومطاردته قد خبَّأت القميص «الضحية» ذكرى عطرة لمحاولة تعتزُّ بها مستقبلاً ـ على عادة المحبين ـ ولكن هذا لم يحصل والعكس قد حدث. ها هو يوسف يرسل بقميصه «هذا» شارة صدق إلى يعقوب مع وفدٍ «رسمي».

وأمَّا الثانية فقوله تعالى: ﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأتِ بصيرا واتوني بأهلكم أجمعين﴾ [٩٣].

ثم قوله تعالى: ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيرا.. الآية﴾ [٩٦].

وحين يتحدث يوسفُ عن القميص هنا فإنما يتحدث بصيغة بالغة الخُصوصية. فهو يقول (اذهبوا بقميصي هذا). وقوله (يوسف) قميصي بإضافة القميص إلى ياء المتكلم ثم تأكيده باسم الاشارة (هذا) لهو في الدلالة الكبيرة على أن هذا القميص يقوم الآن بدور «البطولة» وحسم النَّصر

---

(١) انظر هذه الأقوال جميعاً في تفسير القرطبي للآية جـ ٩ (ص ١٦٦).

لصالح معركة الحق. ولو لم يكن هذا القميص هو قميص النبوَّة ما كان يوسف ليتحدث بمثل هذه الثقة بالنتيجة في مثل قوله ﴿فألقوه على وجهه أبي يأتِ بصيرا﴾ وقد حصل ﴿. . ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيرا﴾[1].

وفي الوقت الذي كان يوسفُ يقوم فيه بالصراع في قضية المراودة كان الذي تراءى له «بُرهانُ رَبِّه». والبرهان هذا حتماً لم يصل إلى درجة النبوة. ولو كانت النبوة قد حصلت ما كان ليبقى في نفس يوسف بقيَّةٌ من استجابة لفتنة وغواية.

ويبدو أن مرحلة النبوة قد جاءت في وقت متأخر من سنوات السجن. فرغم أن يوسف كان يتحدَّث عن التوحيد والدين القَيِّم إلا أن مثل هذه اللفظة «المفتاح» لتؤكد أن الذي كان «يعمل» للآن إنما هو تأويل الأحاديث والذكاء الفطري والمكتسب ﴿وقال للذي ظَنَّ أنه ناجٍ منهما اذكرني عند ربِّك. . . الآية﴾ [٤٢]. إن لفظة «ظَنَّ» لتؤكد أن الأمر لم يكن أكثر من اجتهاد شخصي خارج دائرة الوحي.

ولعلَّ هذا يبين درجة النشوة التي كان يُحسُّ بها يوسفُ وهو يرى تأويله للأحاديث يأخذ طابع التحقق في مثل قوله: ﴿قال لا يأتيكما طَعامٌ ترزقانه إلَّا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما عَلَّمني ربِّي. . . الآية﴾ [٣٧]. ولو كانت ثَمَّة النُبوَّةُ ما كان لِيدلَّ (بضم الياء وكسر الياء) هذا الإدلال.

وهكذا يكون «القميصُ» قد قام بدور كبير من أدوار البطولة وكان وراء

---

(١) يقول الفخر الرازي أن يوسف إنما عرف ذلك بوحي من الله ولولا الوحي لما عرف ذلك.
(التفسير الكبير) جـ ١٨ ص ٢٠٦. ويقول سيد قطب: ذلك ما علمه الله «في ظلال القرآن» (دار الشروق: ١٩٨٠م) ط ٩ جـ ١٣ ص ٢٠٢٧.

تأمين الاتصالات «اللاسلكية» بين يوسف من جهة وبين يعقوب من جهة أخرى عبر لغة «الشيفرة» التي كان يسمع بعضٌ (بالفتح) مفرداتها أخوةٌ (بالرفع) يوسف ولكنهم ما كانوا يقدرون على حَلِّ مغاليقها وفَكِّ رموزها. وقد كان هذا «القميص» يقوم بتأمين الاتصالات في حدود الامكانات البشرية وآفاقها المتاحة لها من تأويل وفراسة وألمعية واستنتاج وقياس من غيرما وحي وإخبار إلٰهي. وفي ذلك ما فيه من الهاب المشاعر وتطهير العواطف ورياضة النفس على الصبر وعلى الترقب وعلى الاحتمال وعلى العزم وعلى الشعور بحلاوة التقوى ونشوة النصر واجتياز التحديات والمصاعب والحواجز والعقبات.

إنَّ جمال القصَّة ليبدو بالغ الرَّوعة في حدود البيئة الإنسانية وإمكاناتها القاصرة وفي حدود استغلالها لأقصى حالات اليقظة وإعمال العقل واستطلاع «الثنايا والبروق» ترقباً للنتائج، وربطاً للحوادث ومواجهة الاحتمالات. وفي ظلال هٰذا التحرك يكون ثمة نشوةٌ لجرِّ الشيطان إلى مثل هذه المعارك الخاسرة التي يسقط فيها معسكر الشرِّ بالكامل. فالنساء يتبرأن أن يكون يوسف قد خالف قواعد الشرف والفضيلة وامرأة العزيز تعلن «حصحصة» الحق والأخوة يعلنون خطأهم مرَّة أمام يوسف ومرَّة أمام يعقوب ويطلبون المغفرة. وفي ظلال هذا التحرك يكون ثمة نشوةٌ بعودة القميص هذه العودة «الظافرة» بعد خوض ثلاث معارك، فيها مثل هذه المكايدة.

**ثالثاً: الرقم (٧):**

والرقم ٧ قد قام بدوره «ببطولة» هامشية في تطوير الأحداث ورسم الموازاة واشاعة جوِّ الترقُّب.

١ـ قال تعالى: ﴿وقال الملك إني أرى سَبعَ بقرات سِمانٍ يأكلهن سَبعٌ عِجاف وسَبعَ سُنبلات خُضر وأُخرَ يابساتٍ ★ يا أيها الملأ افتوني في

رؤيايَ إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ [٤٣]. فالبقرات السَّبع السِّمان يقابلهن سبع بقرات عجاف. والسنبلات الخضر السَّبع يقابلهن سَبعُ سنبلات يابسات.

٢ـ قال تعالى: ﴿يُوسفُ أيها الصِّديقُ أفتنا في سبعِ بقرات سِمانٍ يأكلهن سَبعٌ عجاف وسَبعِ سُنبلاتٍ خُضر وأُخر يابسات لعلي أرجع إلى النَّاس لعلهم يعلمون ★ قال تزرعون سَبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سُنبله إلَّا قليلاً مما تأكلون ★ ثم يأتي من بعد ذلك سَبعٌ شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلَّا قليلاً مما تُحصنون﴾ [٤٧ ـ ٤٨].

ومن خلال هذه الموازاة، وحتَّى تكتملَ عناصر «البطولة» للعدد ٧ في هذه القصة التاريخية؛ فإنَّ المتذوق لأساليب النَسَق القرآني الكريم ليحِسُّ إحساساً «راجحاً» أنَّ الأعداد التي قُصِدَ (بصيغة المجهول) تعميتُها إنما هي «سبعة». وهي المواطن التالية:

١ـ قال تعالى: ﴿وشروه بثمن بخسٍ دراهم معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهدين﴾ [٢٠].

٢ـ قال تعالى: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلَّقت الأبواب[1]... الآية﴾ [٢٣].

٣ـ قال تعالى: ﴿وقال نِسوةٌ في المدينة امرأة العزيز... الآية﴾ [٣].

٤ـ قال تعالى: ﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وأتت كُلَّ واحدة منهنَّ سِكِّينا... الآية﴾ [٣١].

٥ـ قال تعالى: ﴿... فلبث في السِّجن بِضعَ سنين﴾ [٤٢].

٦ـ قال تعالى: ﴿وقال يا بَنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة... الآية﴾ [٦٨].

---

(١) يقول ابن النحاس: (غَلَّق للتكثير ولا يقال غَلَّقَ الباب). إعراب القرآن جـ ٢ ص ١٣٢.

إنَّ ذلك لم يأتِ تفصيلُه بطريقة مُحدَّدة لأنه لم يكن بذي أولوية في بلاغة تسجيل القِصَّة وسرد أحداثها؛ ولكنَّ قرائنَ الموازاة تشي بذلك وتعزِّزُه.

قال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب من منبه: مكث أيوب في البلاء سبعاً، ويوسف في السجن سبعاً[1].

إن الدِّراسة الأسلوبية لأنساق القرآن الكريم لتمنحنا مفاتيحَ في الرؤية تمكِّنا (بصيغة المجهول) كنوزَ التذوق الجمالي، وتقفُ بنا عند الأبواب التي ليس لنا وراءَها من طائل. ومن هذه القرينة يستذكر كاتبُ هذا التذوق المرارة التي أحسَّ بها أبو جعفر الطبري وسبق التنويه بها حين وجد نفسه يعدد عشرات الروايات التي تجعل الدراهم المعدودة عشرين مرة، واثنين وعشرين مَرةً، وأربعين مرة، وأقلَّ من ذلك مَرةً، وأكثر من ذلك مَرَّة[2]. فكان أن صَرَّح: (والإيمان بظاهر التنزيل فرض. وما عداه فموضوع عَنَّا تكلُّفُ عِلمِه)[3].

★★★

وبعد أن جَلَّينا البناءَ الفنِّي من حيث الحُبكَةُ الكبرى والحُبكاتُ الصغرى، يُعنينا (بضم الياء الأولى) أن نتبين ما تُحقِّقه السُّورةُ الكريمة من نجاحٍ في تعميق الإحساس لدى المؤمن المتدبِّر وبخاصَّةٍ حين نأخذ بعين

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير. المجلد الثاني: ٢٥١.
وكان الفراء قد قال: (لبث سبعاً). انظر: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء: معاني القرآن. تحقيق: محمد علي النجار (الدار المصرية للتأليف والترجمة: القاهرة: ١٩٥٥م) جـ٢ ص٤٦.

(٢) تفسير الطبري جـ١٦ ص١٥ - ١٦. وانظر الفخر الرازي: التفسير الكبير جـ١٨ ص١٠٨.

(٣) ذاته وذاتها.

الاعتبار أن (الأمل معقودٌ على أُمَّة محمد ﷺ في إحياء الدين وإقامة موازين الحقِّ والعدل ووراثة السَّماء والأرض كما يريد الله تعالى وكما بَيَّنه الرسول ﷺ وصحابتهُ الأطهار الأبرار) كمثل ما قدَّمنا.

قوله تعالى: ﴿الر تلك آياتُ الكتاب المبين ★ إنَّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ★ نحن نقصُّ عليك أحسنَ القَصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كُنتَ من قَبلهِ لمِنَ الغافلين﴾ [١ - ٣].

هذه المقدمة اشارة واضحة إلى أنَّ تجارب الأمم السَّابقة والعِبَر (جمع عِبرة) السَّالفات إنما القرآن الكريم هو الصَّادق المصدوق فيها أوَّلاً، وهو الـذي عُنيَ بالتفصيلات ذات القيمـة لدى رَبِّ العـالمين ثانياً. ومن ثَمَّ فأولويات التفصيل فيها هي أولويات القرآن الكريم، وما عَداه فهو خارج من أن يكون القرآنُ الكريم قد وَظَّفه. أي أنَّ ما اشتمل عليه القرآن الكريم من هذه التفصيلات لهـو الـذي يقوم الاشتغال به والتعويل عليه وهو الحُجَّةُ والبرهان على ما عَداه إن كان ثَمَّة من يقين في رواية أو خبر. فإن لم يكن ثَمَّة إلى اليقين من سبيل، فإنَّ أمر الاشتغال بغير هذه التفصيلات (خارج حدود ما تركه القرآن) لهو خارج دائرة الرؤية الفنيَّة البلاغية للبناء القصصي في هذه السُّورة الكريمة. وإذا كان ثَمَّة من قصص تصحُّ أن تكون دروساً وعِبـراً في أخبـار المـاضين فإنَّ أحسنَ هذه القصص من حيث ارتباطها بمقاييس ربِّ العالمين لهو ما اشتمل عليه القرآن الكريم.

وإذا قد كان القرآن الكريم أُنزل بلسان عربي فتكون هذه القصص قد أضافت إلى حُسنها في الاختيار والأولوية حُسن البيان العربي وحُسنَ الفهم عنه وبه.

وقوله تعالى: ﴿. . . وإن كنت من قَبله لمن الغافلين﴾ دلالة على أنَّ مَادَّة هذه الـتفصيلات لم تكن في السِّجـل الأدبي للحياة العـربية في

الجاهلية حتى يُمكن لظانٍّ أن يَظُنَّ أنَّ القرآن الكريم إنما قد أعاد صياغتها في قالب جديد أو أبدعها ابداعاً جديداً. إنَّ مادة هذه التفصيلات قد كان رسول الله ﷺ غافلاً عنها. وإذا كان رسول الله ﷺ وهو أفصح العرب طراً وأوسعهم أفقاً بحكم تجارته إلى بلاد الشام قد كان غافلاً عن هذه المادَّة، فمعنى ذلك قطعاً أنَّ هذه المادَّة ما كانت في متناول مشركي العرب البته. وهو أمر يزيد في إعجاز القرآن الكريم شكلاً ومضموناً على السَّواء. وأغلب الظن أن كانت سورة يوسف عليه السلام في النماذج الأولى المتكاملة التي أعنتت مشركي العرب وربطت ألسنتهم وملكاتهم الأدبية والعلمية.

ومن ثَمَّ ما يبدو أنَّه القسوة على رسول الله ﷺ من حيث نعته بالغافلين، لهو في الحقيقة إمعان في توكيد أنَّ الحياة الثقافية عند العرب قبل الإسلام قد كانت غافلة عن هذا القصص وهذه الرؤية الصحيحة لمجريات الحوادث ومسلسل العِبَر والقرائن. وفي ذلك تهييج للتدبر بما لا يخفى على من أحسن اللسان العربي وتذوق أساليب البيان. وقوله تعالى ﴿الغافلين﴾ بصيغة اسم الفاعل وضمن الجمع لهو بالغ الحُجة على أنَّ الحياة الثقافية العربية قبل الإسلام قد كانت هي المقصودة حتماً بهذه المميزة المقصودة وهذا التحول الكبير في حياة العرب وفهمهم للتاريخ وأبعاده ورموزه ضمن الرؤية الكونية التي قد نزل بها القرآن الكريم.

أمَّا ما كان ابتداءُ السُّورة بقوله تعالى: ﴿الر﴾ فذلك ما لا يخفى جمالُه في توكيد أنَّ التنزلات بهذه التفصيلات لم تمرَّ عبر اللغة العبرية أو الآرامية أو السريانية أو الحبشية أو القبطية أو الهيروغليفية أو المسمارية أو غيرها من لغات الشرق الأدنى (للغرب)؛ وإنما كانت من اللوح المحفوظ عربية خالصة سائغة للقارئين والسَّامعين والمتدبرين. وإذن فلا مكان للتعمق في جزئيات التفصيل عبر مقارنات لغوية أو تاريخية. وإذا كان من تصحيح لمفاهيم أو وصول إلى استجلاء حقيقة فليس ثَمَّة غيرُ النصِّ القرآني

ودلالات الألفاظ وموحياتها في اللسان العربي المبين يعطي البيان ويقدِّم التفسير.

وفي هذا تبكيت ليهود قد كان مثل السُّموم على أبدانهم وبخاصة حين نعلم أن اليهود كانوا وراءَ السُّؤال عن أمر يوسف عليه السَّلام. يقول البيضاوي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً لما انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام فنزلت[1].

ثم إن التبكيتَ ليهود ليبلغ مداه حين تقوم الموازاة الدائمة بين يوسف عليه السَّلام وما يمثله من خط النبوة في إبراهيم واسحٰق ويعقوب وما يمكن أن يكون منزلة الرسول محمد ﷺ ضمن هذه التكاملية لرسالة التوحيد الالٰهية من جهة وبين إخوة يوسف من أبيه بما يُمثِّلونه من دهماء يهود وعامَّتهم والغوغاء فيهم ودعاواهم الفارغة بالانتساب إلى معكسر الإيمان وهم عن ذلك محجوبون رغم ما كانت في دمائهم من دماء الأنبياء الكرام. وما كان أجمله هذا المنظر ويوسفُ في السِّجن يتحدث إلى الفتيين هذا الحديثَ البالغة دلالاته ﴿... إني تركت مِلَّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ★ واتَّبعتُ مِلَّة آبائي ابراهيمَ وإسحٰق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك فضل الله علينا وعلى النَّاس ولكنَّ أكثرَ النَّاس لا يشكرون﴾ [٣٧، ٣٨].

وحتماً لقد كان هذا التذكير من خلال النسق القرآني الكريم قد كان في مثل «الشَّرية» على بدن يهود ممن كانوا يعاصرون من رسول الله ﷺ، إذ من غير هؤلاء قتل أنبياءَهم وزيَّفوا نصوصهم وخانوا عهودهم ومواثيقهم وأضاعوا حظوظ الدنيا والآخرة؟ وما أشبه الليلة بالبارحة. لقد كان هؤلاء الأخوة على غَرقهم في الضلال والكفر يرون أباهم في ﴿ضلال مبين﴾

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي. التعليق على مقدمة السُّورة الكريمة.

[٨]. فأين ثمة يقف أولاد زُطٍّ بحر الخزر وقزوين من أمثال المناحيم والشَّامير والشاديت؟ بل أين يقف أبناء كيبوتسات التفريخ البشري حيث نشأ أمثال دايان ونبت شارون بطل صبرا وشاتيلا في بيروت؟.

وما كان أجملَ قوله (بفتح اللام) تعالى: ﴿تلك﴾ بعد قوله تعالى: ﴿الٓر﴾. وهي إيجاز فيه حذف يلغي كُلَّ ما قد يلوح في الخاطر ولا يُثبت (بضم الياء) إلَّا ما سيأتي وما سيأتي فقط. وإذن، فإن كان ثمة تعلق بأوهام واستمساك بأقوال، وتشبث بأمانيَّ واهمات من جانب يهود ومن والاهم في عتمة العقائد وغيمة الزمان، فلفظة (تلك) تَجُبُّ (بفتح التاء وضم الجيم وتضعيف الباء وضمها) ذلك كُلَّه وتقطع دابره وتحيل إلى النبع الصافي والعلم الصحيح. إنَّه الكتاب المبين. والمبين في هذا الصدد مقابلة لكتب هي إلى الطلاسم أقرب منها إلى البيان. ومن ابتلي بقراءة التوراة العزرية وكتاب «مدراش ربَّاه» الذي صرفت الصهيونية العالمية الملايين على إخراجه يتبين أيَّ غموض تحمله هذه الكتب التي يتوارثها يهود. وهذه قصة يوسف في التوراة العزرية فإذا هي نتف من الأخبار التي لا رابط فيها ولا جمال ولا ترقب.

ثم لقد عُقِّب (بصيغة المجهول، وتضعيف القاء وكسرها) على اسم الإشارة (تلك) باسم إشارة آخر هو (هذا). فكأن (تلك) كانت على ناصية الطريق، وكأنَّ (هذا) قد أصبح في متناول النبع الصافي والماء العذب النمير وهو القرآن الكريم.

وبالتالي، فإن اختلاف الإشارات في الترتيب والتعقيب، وفي التذكير والتأنيث، قد خَدمَ السِّياق بطريقة فيها الملمح «البُعدي» (بضم الباء) إن جاز التعبير؛ وذلك بين بداية التوجُّه ومكان الوصول. وهو أسلوب في البلاغة لم أجد له نظيراً فيما أعرف من لغات (الانجليزية والألمانية والعبرية القديمة).

ويذهب أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحَّاس في «إعراب القرآن» إلى أنَّ التقدير: هذا تلك آيات الكتاب على الابتداء والخبر.[1] ويقول البيضاوي: تلك آيات الكتاب المبين[2]. وهو أمر على وجاهته يراه كاتب هذا السِّياق إنما يقوم على الإيجاز المكثَّف والحذف الكثير. وهو إيجاز يبدي صفحة واحدة من الأمر ويترك الصفحة المقابلة عن «عَمد فَنِّي» (بفتح العين وتسكين الميم) فتكون الغائبة واضحة تمام الوضوح سواء أكانت نتيجة قد نُوِّه (بصيغة المجهول) بمقدمتها وأُمسك (بصيغة المجهول) عنها أو مقدمة قد أُمسِك (بصيغة المجهول) بها وحدها وحيل بينها وبين ما يترتب عليها لأن الحذف أوضح من التصريح. وما يراه كاتب هذا التذوق أنَّ قولَه تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ نتيجة ترتبت على مقدمة قد أُمسِك (بصيغة المجهول) عن ذكرها بلاغة وبياناً. ويكون ثَمَّةَ التقدير: قد كان حول يوسف أخبارٌ ونصوص ومزاعم وأساطير وليس الوردُ (من وَرَدَ الماء) فيها بذي ريٍّ فكري ويقيني. ومن كان يريد المورد العَذب. تلك آيات الكتاب المبين. وبذلك تكون (تلك) كأنها لوحة الاضاءة في طريق تكتنفها الظلمات أو قل هي السهم المضيء في العتمة يَدُّل السائرين إلى المكان الصحيح.

وإنْ جاز لكاتب هذا التذوق أن يباعد عن الطريقة المألوفة في الإعراب ـ وهي الأسهل ـ لقدَّر إعراب (تلك) على النصب في موضع الظرفية المكانية بمعنى هنا. ويكون التقدير: آيات الكتاب المبين هنا. وتكون (تلك) خبراً مُقدَّماً و(آيات) مبتدأ مؤخَّراً. وفي ذلك جمال لا يتراءى من خلال التبسيط الذي نراه الأسهل والأقرب والأسلم.

وذكر (كتاب) في الآية الأولى والإشارة إليه (قرآناً) في الآية الثانية فيه

---

(١) تحقيق: زهير غازي زاهد (مطبعة العاني. بغداد: ١٩٧٩م) جـ ٢ ص ١١٩.
(٢) انظر: تفسير البيضاوي (تفسير الآية ص ٣٠٨).

دلالة الجمع بين النَصِّ المكتوب والنِّص المقروء. ولعلها الإشارة إلى أنَّ النصَّ المكتوب في اللوح المحفوظ إنما هو كالمقروء ـ باللسان العربي وباللغة العربية. وهو كشف ما كنا لنعلم درجة مصداقيته إلَّا حين يكشف الغطاءُ يوم القيامة. وما يراه كاتب هذا التذوق أن لفظة (قرآناً) في هذه الآية إنما هي «مصدر متجدد» يجمع بين خاصيَّة الحال وخاصية النيابة عن المفعول المطلق[1]. وإذن يكون الكتابُ والقرآن وجهين لعملة واحدة ويكون المكتوبُ والمقروءُ على ذات الدرجة من الانتماء إلى اللغة العربية رَسماً ولفظاً[2].

نحن: مبتدأ (ضمير رفع منفصل مبني على الضم في محل رفع).
نقصُّ عليك: جملة فعلية من فعل وفاعل (ضمير مستتر تقديره نحن) في موضع الخبر.
أحسنَ القَصص: بمعنى المصدر والتقدير قصصاً أحسن القصص.
بما أوحينا إليك: قال الأخفش: أي بوحينا إليك.
هذا القرآن: نصب بأوحينا. وهو عند البصريين على البدل من (ما) ويجوز أن يكون مرفوعاً على إضمار مبتدأ[3].

وواضح من قوله تعالى: ﴿وإن كنت من قبله من الغافلين﴾ أنَّ المقصود هو الوعي الجماعي للثقافة العربية قبل الإسلام والسِّجل الأدبي فيها. ولو كان غيرَ (بالفتح) ذلك هو المقصود، ما كان ليتحدَّث (بصيغة

---

(١) مصطلح (المصدر المتجدِّد) اقترحه كاتب هذا التذوق في كتابه (في التذوق الجمالي لمعلقة امرىء القيس) (دراسة نقدية إبداعية) (مكتبة الأقصى. عمان: ١٩٨٤م) وذلك لإظهار درجات الحيوية العالية في هذه اللغة المُشرِّفة.
(٢) يُراجع في ذلك كتابُنا: في التذوق الجمالي لما اشتمل على ذكر اللسان العربي من آي القرآن الكريم (دار الجيل. بيروت. مكتبة المحتسب. عمان: ١٩٨٤م).
(٣) انظر: إعراب القرآن جـ ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٠.

المجهول) عن رسول الله ﷺ في زمرة من الناس في موقع سلبي ـ إن جاز التعبير. وهـذا يزيد في إعجـاز القـرآن الكـريم وتـوكيد الحُجـة على المعـاصـرين من رسول الله ﷺ وعلى السِّجل الأدبي والوعي الجماعي السَّابق لنزول رسالة الإسلام بل وتوكيد الحُجَّة على اللاحقين من «جيوش» الباحثين الذين لا يحلو لهم مثل أن يردُّوا كُلَّ حركة وسكَنة إلى نصٍّ فرعوني أو أسـطورة يونـانية أو طواطم جاهلية أو طقوس قديمة أو «فولكلور» غير مُدوَّن. وواضح توكيد (كنت) بـ (من قبله) توكيداً معنوياً بما يجعل أمر جلاء هذه المسـألـة على قَدرٍ كَبير من الأهمية في إفـراغ القصـة في مناخهاSetting الذي ينبغي أن تكون حيثياته وقرائنه واضحة وضوحاً لا لَبْسَ فيه ولا موضـع تخمين. ومن يدري فلعله قد كان نجم فينـا من الأدبـاء المتحذلقين ممن وجدوا الدَّسم في كتابات الدهاقنة مرجوليوث (اليهودي) وبرنارد لويس (اليهودي) وماسينيون (النصراني الصليبي) ـ من يعثر على نص كتبه شعوبي أو تركه سرياني في دير أو رمى به يهودي من بني قريظة أو من بني قينقاع في سجلات «الجُنَّاز» (وهو أدب يشتمل على كل حقائق الـوجود كما يروج له دهاقنة اليهود في الغرب يكون اليهودي قد ألقاه مع الميت منهم في القبر ـ على طرائق قدماء الفراعنة) ـ ويقيم عليه دراسة «أكاديمية» تؤدي النتائج فيها إلى تقرير «حقيقة مهمة» وهي أن القصَّة قد كانت موجودة في تفصيلات أكبر في مكتبات مكة قبل الإسلام وأنَّ القرآن الكـريم ـ وهنـا يوطئون الأكناف قليلاً ذرَّاً للرماد في العيون ـ قد ألمَّ بها بطريقة أو بأخرى؟!

من ها هنـا فإنَّ كاتب هذا التذوق يرى أنَّ إحساسَنا بجمال التوكيد ورسم الظلال الجانبية من حول النَصِّ والعبور المفاجيء للتعليق الخارجي على النص أو الحوار الهامشي إنما هي في عيون المتأخرين أكبر دلالات بحكم ما أعطيناه من ضروب البصر بالتحذلق الأكاديمي والدسِّ الثقافي والعمى البصيري والتفـاصـح القـائم على الجهـل والشعبية الـرخيصـة

والتفاصح القائم على المنفعة وخدمة الأهداف المشبوهة وترويج البغ خارج الإسلام ولو كانت البضائع خُلقاناً وأدب «جنائز».

ومن ها هنا فإنَّ كاتب هذا التذوق ليحسُّ أن تعليم الأسلاف ا على نقاط بعينها في الإعراب وروابط التراكيب قد لا يكون يفي با الحضارية اليوم. إنَّ البعد الزماني ليُمُدَّنا بأسباب رؤية لروابط التر تزيدنا وضوحاً في تبين درجات الحق وإشراقه. إنَّ ما للأسلاف قد الـرؤية المستقبلية قد غدا لنا اليوم الرؤية المستقبلية فيها نكهة الما ودرجات استمرار وتثبت. وهو أفق في تذوق النصوص ينبغي أن نظلَّ نُنَ (بتضعيف الشين وكسرها) في «توزيع» جديد وفي «تعامل» متجدِّد.

قال تعالى: ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إني رأيت أحَدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمر رأيتهم لي ساجدين ★ قال يا بُنَيَّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إنَّ الشيطانَ للإنسان عدوٌّ مبين ★ وكذلك يجتبيك رَبُّك ويعلِّمُك من تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمتَه عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قَبلُ إبراهيمَ وإسحٰق إنَّ رَبَّك عليم حكيم﴾ [٤ ـ ٦].

(إذْ) في موضع النصب على الظرفية إذ التقدير: واذكر زمانَ قال يوسف[1].

(يوسف): ممنوعة من الصرف للعلمية والعجمة.

(أحَدَ عَشَرَ): مبني على فتح الجزأين.

(كوكباً): تمييز منصوب.

(رأيتهم): توكيد لفظي لـ (رأيت).

وقوله (لي) تأكيد على أنَّ السجود كانلـ (يوسف) ولم يقل سجدوا لأن ذلـك قد يكـون حركـة سريعـة وإنمـا قال (سـاجدين) ليدل على طول

---

(١) انظر: إعراب القرآن جـ ٢ ص ١٢٠.

الاستغراق ووضوح المقصد والتثبت من الأمر.

والضمير في (رأيتهم) في محل نصب مفعول به أول والميم للجماعة. و(ساجدين) مفعول به ثاني وعلامة نصبه الياء والنون لأنه جمع مذكر سالم.

والإشارة إلى الكواكب بالضمير هم إنزالُها منزلةَ العقلاء وذلك إيماءة ما كان أحسنهَا للمتذوق ليعلم أنَّ وراءَ هذه «المغايرة» تدبيراً بلاغياً من مستوى معين. وها نحن نرى الكواكب اسماً لمسميات أخرى وإذا هي آية عن الأخوة. وقل مثل ذلك في الشمس والقمر. وإذن فالمراوحة بين (ها) في (رأيتها) إلى (هم) في (رأيتهم) لهو انتقال في العلاقات يشي بمراوحة الأسماء بين المسميَّات على الحقيقة وبين المسميَّات على المجاز. وهي أداة فنية ما كان ألطف استخدامها في هذه القرينة البالغة الحُسن.

وما كاد يوسفُ ينهي كلامه حتى بدأت حاسَّة التخوف على يوسف تعمل عملها لدى يعقوب عليه السَّلام. وعن قصد فإنَّ يعقوب لم ينبر لإعمال العقل فيما يمكن أن يكون عبور الرؤيا وإنما جعل يُسدي النصائح ليوسف بروح الوالد الشفيق على ولده وبتصغير لفظة الابن تصغير تقريب وتحنان علاوة على فتاوة السنِّ وطراوة الشباب. يا بُنيَّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً. وإذن فهذه الرؤيا ذات الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر لم يقصصها يوسف على إخوته وبقيت بينه وبينه سرَّاً مشتركاً.

ومن يقرأ التوراة التي جمعها عزرا الكاتب يشعر بالإشفاق على هؤلاء الذين كانوا يتخرصون بغير علم. تقول هذه التوراة: (. . . فقال (يوسف) إني قد حَلُمتُ حُلماً أيضاً وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي. وقصَّه على أبيه وعلى إخوته. فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحُلمُ الذي

حَلِمتَ؟ هل نأتي أنا وأمُّك وإخوتُك لنسجدَ لكَ إلى الأرض. فحسده إخوته. وأمَّا أبوه فحفظ الأمر)[1].

وإذن فقد وقع في علم يعقوب أنَّ الرؤيا فيها البشرى بمستقبل عريض وحياة ذات شأن وتبينتها نفسُه. وواضح أن وضع الكواكب في خانة والشمس والقمر في خانة أخرى كان على قدر رائع من البلاغة للدلالة على أنَّ والدته سوف تتوقف عن الحمل ـ وقد حصل؛ وأنَّ زوجة أبيه وأمَّ إخوته سوف تكون من الهالكين قبل زوجها وقبل أبنائها. ولو لم يكن قد حصل لما رأينا الحديث عنها في الرِّحلة قد كان صِفراً.

قوله تعالى: ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾.

الفاء واقعة في جواب النهي ويكيدوا فعل مضارع مجزوم بحذف النون لأنه من الأفعال الخمسة. كيداً مفعول مطلق.

وقول يعقوب في هذا السِّياق يؤكد عدوانية الإخوة ولجاجهم في هذه العداوة بطريقة تفارق حَدَّ المألوف. فلعلهم قد أخذوا هذه العدوانية من أمهِّم ومن أخوالهم أو من أجدادهم لأمهم ـ ثم قد كانت هذه نقطة الضعف التي ولجها الشيطان. وهو أمر يعلمه رَبُّ العالمين وحده فهو المُطَّلع على «بذرة» الجينات الوراثية وتأثيرها الخفي في التسرب إلى الشخصية وطبعها بطابع معين. لكنَّ وجود عشرة إخوة يتصرفون هذا التصرف الشائن ويصرون على ما فعلوا من غير ما تفاوت كبير في وجهات النظر يدل على أنَّ «مُعامِل الذكاء» قد كان ينحصر في حدود معينة لم يجاوزها (ربما بين ١١٠ ـ ١٣٠ على الأكثر).

ولعلَّ في هذه المفارقة الوراثية ما جعل يعقوب يختص يوسف باعطائة

---

(١) سفر التكوين الاصحاح السَّابع والثلاثون.

قميص النبوة القميص الذي يبدو أنه كان قد لبسه اسحٰق ويعقوب على نحوٍ له مباركة سماوية وشارة إلٰهية كمثل ما قَدَّمنا. وإن المتذوق للنصوص الأدبية ليحسَّ أنَّ مُعامل ذكاء الإخوة قد كان متدنياً بعض الشيء. وبعض القرائن التالية تقدم الدليل:

١ـ قال تعالى: ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾ [٥٨].

٢ـ قال تعالى: ﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ★ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنِعَ مِنَّا الكَيلُ فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون ★ . . . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا. . .﴾ [٦٢ ـ ٦٥].

وصدَقَ حَدسُ يوسف في وضعهم في مناخ من يرجع إن لم يكن من أجل التجارة فعلى الأقل من أجل إرجاع الثمن وتسديد الحساب. فأين ذكاؤهم من ذكائه؟

٣ـ في الوقت الذي كان ينبغي على الإخوة أن ينفوا تهمة السَّرقة عن أخيهم الثاني من أبيهم وأن ينسبوا ذلك إلى ملابسات من نوع معين إذا هم يتورطون في قضايا جديدة تُثبِّت (بتضعيف الباء وكسرها) السَّرقة على الفتى وتضعه في موضع المريب والمشبوه. وها هو قولهم الذي لا يدل على قليل من الدراية والذكاء ﴿قالوا إن يسرق فقد سَرَقَ أخ له من قَبلُ. . .﴾ [٧٧]. ما كان أغناكم يا هؤلاء عن التورط في مثل هذه الأمور التي تضع الحجة عليكم. وإذا كان أخوكم من أبيكم وأخوكم الثاني من أبيكم لصُوصاً بزعمكم؛ فليس بينكم وبينهم مسافة كبيرة من الوراثة كي يمكن أن يعدَّكم الناسُ فوق شبهات السرقة أيضاً. ولكنَّه الغباء حتماً.

٤ـ ولذلك، فإنَّ يوسف وقد عرف نقاط الضعف في مُعامِل الذكاء عندهم فإنه بدأ يتعامل معهم تعامل القائد مع صغار الجند. نَفِّذ: حاضر سيدي. انظر إليه وهو يصدر هذه الأوامر المحدَّدة التي لا تقبل نِقاشاً ولا تحتمل معاودة:

﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأتِ بصيراً واتوني بأهلكم جميعاً﴾ [٩٣].

وقوله (هذا) تأكيد على غبائهم في سرعة اللمح والفهم وهو زيادة في التبسيط والشرح لا يطاق الفهم الذكي. ثم هذا الأمر القاطع (فألقوه) ثم هذا الترتيب في النتائج. ولم يجرؤ أحدهم أن يثير غُباراً حول ما إذا كان البصر لم يرجع كيف ثَمَّة يكون التصرف. وتصوَّر معي عشرة إخوة يحملون قميصاً أثرياً وتكون رحلتهم من مصر إلى فلسطين من أجل حمله وتأمينه ومسح وجه الشيخ يعقوب به ـ من غير تشكيك أو مجادلة أو مناقشة.

قال تعالى: ﴿إذ قالوا ليوسفُ وأخوه أحَبُّ إلى أبينا منَّا ونحن عُصبة إنَّ أبانا لفي ضلال مبين ★ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجهُ أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ [٨، ٩].

وواضح من منطق الإخوة غباءَهم في طريقة الاستنتاج. فما علاقة المحبَّة بالعَدد؟ العكس هو الصحيح. إنَّ العطف والحنان ليكون مع الفرادى والضعاف والصغار على حساب العصبة والقوة والجماعة. ثم كيف سمحت لهم عقولهم بالاستنتاج أنَّ أباهم في ضلال مبين؟ وأن لو كان في ضلال فقط من غير (مبين) لربما كان الأمر أقلَّ خَطلاً. ثم إنَّ الخَطَلَ ليأتيهم من هذا التردُّد بين أن يقتلوا يوسف أو أن يخلصوا منه بأيِّ ثمن. وإذا كان قد تبين من سياق القصة أنهم لم يكونوا يُكِنُّون ليوسفَ أدنى شعور من الرحمة بدليل قولهم بعد ذلك بكثير ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له

من قبل. . .﴾ [٧٧]؛ فواضح أن الحيرة في طريقة التخلص من يوسف قد كانت هي الثغرة التي جَرَّت عليهم كلَّ هذه الإحباطات التي دفعوا ثمنها غالياً من كبرياء النفس ومن السُّقوط المعنوي والاعتباري. وتبلغ درجة الضعف الذكائي أقصى درجاتها حين يقرِّرُ هؤلاء أنهم بعد هذه المؤامرة الجماعية التي يندى لها جبين الحيوان بله الإنسان أنهم سوف يخلو لهم وجهُ أبيهم وسيكونون قوماً صالحين. وقد وضح العكس تماماً. لقد تولى يعقوب عنهم وكان يتعامل معهم تعاملاً فيه مفارقات عجيبة من مستويات التفكير. وهم قد ازدادت حساسيتهم من ذلك لدرجة كانوا يجرحون فيها إحساس أبيهم بكلمات جارحة وألفاظ نابية ﴿قالوا تالله إنَّك لفي ضلالك القديم﴾ [٩٥].

ثم إنَّ عامل الزمن بديل يحيي عندهم صحوة الضمير وتأنيب النفس إذا هم يزدادون قسوة إلى قسوة وغلظة إلى غلظة. وإذا كانت أمة محمد ﷺ هي وارثة هذه الدروس بعد يوسف ويعقوب عليهما السَّلام فينبغي أن تدرك هذه الأمة أن اليهود الأنجاسَ لن تَرِقَّ قلوبهم أبداً بعد القيام بعمليات إجرامية بشكل جماعي ـ قياساً على الحالات الإنسانية العامة. إن هؤلاء في دمهم إجرامٌ من نوع معين وجينات وراثية لا سبيل إلى نكران أثرها المدمِّر.

ولم يكن تورطهم في هذا المنطق المعوج أمام يوسف بقولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) ليكون تلبُّكاً وغياب سَعدٍ. بل إنهم من نشوة الحصول عليها ذهبوا يرددون ذات «الاسطوانة» بطريقة أكثر نكاية وأعمق جرحاً ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سَرَق وما شهدنا إلاَّ بما علمنا وما كنا للغيب حافظين﴾ [٨١]. أليس من قبيل غلظة القلب أن يقولوا في هذا الموقف الشائن (ابنك) ولا يذكرونه من حيث هو أخوهم؟ أمَّا حين كان الكلام عن هذه (الأخوَّة) يخدم مصالحهم وينفِّذ مآربهم ويقضي أوطارهم فقد كانوا إليها سبَّاقين. انظر إلى حديث المودة بلفظة

الأخوة والاعتزاز بها حين أرادوا أن ينالوا من أبيهم موافقة ﴿قالوا يا أبانا . . . ونحفظ أخانا . . . الآية﴾ [٦٥]. وليس هذا ذكاءً كما قد يتبادر إلى الذهن وإنما هو الغباء بعينه إذ سيعلم يعقوب أساليب هؤلاء في المراوغة والالتواء والأنانية ويكشف مستويات الصيغ عندهم ودرجات الصِّدق فيها. وهو لم يكن يُصدِّقهم (من التصديق) أصلاً ﴿قال بل سَوَّلت لكم أنفسكم أمراً . . . الآية﴾ [١٨] فكيف يُصدِّقهم الآن ﴿قال بل سَوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى اللهُ أن يأتيني بهم جميعاً . . . الآية﴾ [٨٣].

وقد أعطى هذا الغباءُ (بالرفع) يعقوب الشعورَ بالتخوف من أعمال هؤلاء. بل لَعلَّه قد أدخل في حساباته أنهم لن يتورَّعوا بعد كثرة هذه الإحباطات عن التفكير في تصفيته جسدياً والإجهاز عليه وإلى الأبد. إن منحى ذلك واضح في مثل هذه النصوص: ﴿قالوا تالله تفتأ تذكرُ يُوسفَ حتى تكونَ حَرَضاً أو تكونَ من الهالكين ★ قال إنما أشكو بَثِّي وحُزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [٨٥، ٨٦]. وما نظن أن هذا القول قد كان في ترفُّق. يبدو أن حدَّة النَّبر فيه قد كانت عاليةً لدرجة الزجر والتقريع لو أمكننا رؤية حواجبهم وحركة شفافهم امتعاضاً، وأيديهم تأبياً واستنكاراً، ومن يدري ربما نظراتهم فيما بينهم ضدَّ هذا الشيخ الكبير الذي وجد نفسَه في بيئة من الجاهلين ـ قد كانت تكاد تزلقه (يعقوب) سخطاً وعُتوّاً. وهذا ما نستدلُّ عليه من قول يعقوب في انكار نفسي ما بعده انكار ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾. لم يعد هنالك أدنى تعاطف من يعقوب إزاء هذه المسألة وما اتَّصل بها. كان يُراد لها أن تُطمسَ بالكامل وأن يُسدلَ على الجريمة السِّتارُ.

وما نظن يعقوب قد كان حريصاً على الحياة بعدما كان من حزنه على يوسف ولكن حرصه على الحياة قد كان بحكم ما التمعت في ذهنه قرائن الأحوال ورَدِّ النتائج على المقدمات وقراءة ما وراء الظواهر والمتشابهات.

وهي نشوة قد كانت تفوق كلَّ سعادة حين قال يعقوب بلهجة الواثق المنتصر ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً ★ قال ألم أقُل لكم إني أعلمُ من الله ما لا تعلمون﴾ [٩٦].

لقد أصبح لهذه الجملة رنينٌ وحلاوة ما كانت لتعني شيئاً لهذه العصبة بل الطغمة الجاهلة حين كان يعقوب يقولها تحت وطأة التعذيب النفسي والضغوط المختلفة ﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ★ وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [٨٦].

لقد كانوا يصبرون عليه ويطيقونه وهو يتحدث عنهما (ابنيه) بصيغة التعمية وضمير الغائب. ولكن التصريح بذكر اسم يوسف كان أكبر من أن تحتمله اعصابهُم وتطاقه طبائعهم وأمزجتهم. وحتَّى حين تولىَّ عنهم (ربما إلى ظل الحديقة) أو إلى مكان قَصيٍّ ليخلو مع نفسه في ذكر يوسف والتلفظ باسمه نجدهم قد بعثوا عيونهَم (جواسيسهم) ليسجلوا عليه ألفاظه وحركاته. ثم ها هم يبتدرونه بالقول (وكان ذلك حتماً بعد أن تداولوا فيما بينهم بشأن هذه الظاهرة الجديدة والحساسية المفرطة لمواجهة المرحلة) ولعل ذلك كان على مائدة الطعام وقبل تناول الأكل مباشرة ﴿. . . تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حَرَضاً او تكون من الهالكين﴾[٨٥].

وإذن فالتلفظ باسم يوسف ما عاد لديهم استعداد وصبر على سماعه وكان إجماعهم تامّاً على إيقافه وطمسه. يُحَدِّث بذلك لفظة (قالوا). ثم إن تفصيلهم في النتائج المترتبة على ذلك (حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين) تشعر أنَّ الهلاك ما عاد عن يعقوب بعيداً. وما نظنه قد كان عندهم الهلاك بعد الحرض إذ لو كان كذلك لقالوا (فتكون) بالغاء فاء السببية ولكنهم قالوا (أو) التي هي احتمال آخر من احتمالات سوء العاقبة. وإذن فقد أحسَّ يعقوب أنما قد بدؤوا يخططون لإهلاكه والخلاص منه كما قد خلصوا من بنيه. وأنها الخطوة المتوقعة لاخفاء الجريمة وإلقاء سدول

النسيان عليها كما هو الشأن في حياة المجرمين الحقيقيين بما لا يخفى.

ولو كانوا إنما يعنيهم راحة أبيهم وعافيته لما كان جوابهم في مثل هذه السَّماجة التي تفوق كُلَّ احتمال ﴿ولمَّا فصلت العِيرُ قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفنِّدون﴾ [٩٤].

وكان حقيقاً بهم حين قال ذلك أن يُخففوا من لهجتهم وحِدَّتها ولكنهم عوضاً من ذلك راحوا يثورون. ﴿قالوا تالله إنَّك لفي ضلالك القديم﴾[٩٥].

أرأيت إلى قولهم (تـالله) بصيغة القسم وقولهم (إنَّ) بحرف التوكيد وكـاف الخـطاب وقـولهم (لفي) بدلالـة اللام المزحلقة المؤكدة وقولهم (ضلالك) بما تفيده اللفظة وإضافتها إلى كاف الخطاب ثم قولهم (القديم) الـذي هو من نوع التذكير بأنَّ هذه السيرة قد طالت كثيراً بأكثر ما يمكن احتمالُه والصَّبر عليه.

والـذي يزيدُنـا توكيداً أن هذه الأهداف الشرِّيرة لم تكن بعيدةً عن متنـاول تفكيرهم هو هذا «التـزامن» غير القـائم على التنسيق بين موقف يعقـوب من العُصبـة من جهـة وموقف يوسف من العصبة ذاتها في ذات الوقت. وهو للمتذوق انزياحُ حاجزي الزَّمان والمكان بما يجعل المنظرين قائمين في عيني الناظر في ذات الوقت كما هو التصوير التلفزيوني. ها هو يوسف ومن غير ما مقـدمات ومن غير ما مناسبة يندفع يقول ﴿... إني تركت مِلَّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾ [٣٧].

ولو لم يكن «التزامن» قد كان صحيحاً ـ ما وجدناه في مُتخير «أحسن القصص» في هذه القصة التي أُغفل الكثير من تفصيلاتها غير المهمة وغير الضرورية.

ومـا كان ليوسف أن يتحـدث عن قومه بصيغة المضارعة وهو يعني

انطباعه عنهم في الماضي حين فارقهم. ولو كان ذلك لقال: (لم يؤمنوا بالله) لأنه يتحدث عن ماضٍ قد بَعُدَ. يؤكد ذلك ويجلِّيه أحسنَ تجليَه قوله يوسف معقباً ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

وهي جملة على درجة عالية من التوكيد والجزم. هم الثانية توكيد لفظي. تقديم الآخرة على الكفر هو التركيز على كثافة العتمة التي تران على عقائدهم. وقوله (كافرون) بصيغة اسم الفاعل دليل على حصول الكفر واستمرار الاصرار عليه. ومن كان كافراً فهو يمكن أن يُقدم على ارتكاب كلِّ الجرائم دون أن يتورع عن شيء.

ولعلَّ ذلك كان السَّببَ وراء جفاء يوسف في معاملتة لهم في مصر ومحاولته تجنب الخوض معهم بالاستفسار عن أبيهم. وها هم يقدِّمون بين يدي يوسف مثل هذا الترحم ﴿قالوا يا أيها العزيز إنَّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنَّا نراك من المحسنين﴾ [٧٨]. ثم إن يوسف لم يُبدِ أي نوع من العطف ازاء هذه المسألة حيث أن أباهم شيخ كبير ولم يشأ أن يتكلم في هذا الموضوع. بل إنه حَوَّل الموضوع إلى أمر آخر ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وجدنا متاعنا عنده إنَّا إذاً لظالمون﴾ [٧٩]. ولم يكن أيُّ استطراد حول الأب وشيخوخته وكبر سِنِّه.

ولو كان لهؤلاء حديثٌ سابق مع العزيز (يوسف) حول أبيهم الشيخ ما كان حديثهم إليه الآن بمثل هذه الحسرة ﴿إنَّ له أباً شيخاً كبيراً﴾.

ولذلك، فإن الذي نظنُّه أنَّ الذي عَجَّل بأن يكشف يوسف عن هويته لم يكن بسبب تهيئة مناخية للأمر، ذلك أنَّ حزازات النفوس كانت كما «هيا» ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرَّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ [٧٧] ـ لم يكن بسبب أن الضُرَّ قد مَسَّهم وأن ملابسَهم قد رَثَّت بقدر ما نراه قد كان لسرعة

فَكُّ الحصار التآمري على الشيخ الكبير. ولا بُدَّ أن كان أخوه (من أمه وأبيه) قد أطلع يوسف على ممارسات قد كانت غاية في قشعريرة البدن. ومن يدري فلعل هذا الشعور بالأسى والمرارة هو الذي أسكت في قلب يوسف كلَّ حنين إلى مسقط رأسه وإلى ملاعب صباه (وإن كان أهله بدواً). لقد كان بإمكانه أن يقدم في موكب مهيب لو أراد ولكنه لم يفعل ولم تحدثه النفس بأن يفعل ـ على الأقل كما نُحسُّ به من خلال النسق القرآني الكريم.

ولذلك فإن قول يوسف عليه السلام كان إزاء دعوتهم إليه بالمسامحة ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ [٩٢] وهو أدب مع ما فيه من رَدِّ الامور كلها إلى الله كما ينبغي، إلا أنَّها في الوقت ذاته خِلْوٌ من أي شعور بالتحرر من عقدة الأسى والمرارة معهم. وكذلك كان موقف يعقوب منهم أيضاً ﴿قال سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾ [٩٨]. وسوف هي للتسويف وما نظنه قد كان فعل. ومثل هذا الأسى تبلغ به هذه الدرجة العالية التردد والنغمة في حديث الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ ختامَ هذه القصة ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ [١٠٢]. وهو أسلوب في الخطاب وتهيج السامعين لا يخفى على من يحسنون اللسان العربي ويعرفون مواطن أسراره. ولو كان ثمة التهيجُ بداية القصة لقلنا لقد كانوا خطاة وتابوا وانتهت الفصول ولكن التهيج هو في نهاية القصة بما يعكس المرارة التي كانت قد ألقت بوطأتها على يوسف وعلى يعقوب وعلى الله تعالى وكما ينبغي أن تلقى على رسول الله ﷺ. ولذلك ما كاد يهود يلعبون بذيولهم في معاهداتهم مع رسول الله ﷺ حتى كان الحبيبُ محمد ﷺ أسرع إلى محقهم وتصفيتهم التصفية التي استأصلت شأفتهم. إنَّ ما احتمله يوسف ويعقوب من هؤلاء قد كان فيه كفاية.

قال تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ★ إذ قالوا

ليوسف وأخوه أحَبُّ إلى أبينا منَّا ونحن عُصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ★ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يَخلُ لكم وَجهُ أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ [٧ ـ ٩].

واضح الإشارة إلى الجوانب الكثيرة ذات العِبَر (بكسر العين المهملة والباء المفتوحة) البالغة في قِصَّة يوسف وعلاقته مع إخوته. وهي كالآيات لا تنقضي عجائبها لكثرة ما ينضوي تحت مناخها في كل عصر من نماذج تتكرر في المجتمعات البشرية. وهي لنا أُمَّةَ الإسلام دليل حَيٌّ على ما يعتمل في نفوس يهود من دَجَلٍ ومداهنةٍ ومن كيد كبير.

وما أجمل قوله تعالى (كان) بصيغة التذكير التي قد فُصلت عن (آيات) بفاصل زماني ومكاني. وصيغة التذكير هي حتماً أقرب إلى التوكيد وأمَتُّ نسباً بلفظة (لقد). وما أجمل قوله تعالى: ﴿إذ﴾. و(إذ) هذه كانت أداة فنية رائعة للتوطئة إلى سرد القصة وتفصيلاتها.

ليوسفُ: اللام لام الابتداء تفيد التوكيد. يوسف: مبتدأ مرفوع.
وأخـوه: معطوف.
أحَـب: خبر المبتدأ.

وأحب إلى أبينا مِنَّا: تركيب بالغ الجمال فائق الحسن. وهو تعليق ألفاظ على بعض فيها من الانسيابية والموسيقى الداخلية ما يجعل حروف الجَرِّ ذات طعم مميَّز. إنَّ حروف الجر في اللغة العربية ما كانت لتكون بأحسن من مثل هذا السِّياق وهذا التعبير وهذه التحولات في المواقف والعواطف.

وتقديم (إلى أبينا) على (مِنَّا) واضح التركيز على ما يعلقه الأخوة على حُبِّ أبيهم من أهمية وأنه أي الأب مركز هذا الثقل والتجاذب. وها هي اللفظة الدَّالة على الأب لهي في مركز القضية معنى وهي في مركزها لفظاً

ومساحةً وتوسطاً من الجملة. وللقارىء أن يتخيل أوتاداً مشدودة إلى المركز والوتد الذي يمثل الأخوين قريب من المركز قرباً يفوق أوتاد الأخوة «العصبة». وواضح أن جملة (ونحن عصبة) جملة حالية من الضمير في مِنَّا. وقولهم (إنَّ أبانا لفي ضلال مبين) جملة عربية حوت من أساليب التوكيد وقوة الرأي أعلاها. إنَّ: حرف توكيد. واللام المزحلقة للتوكيد. والإضافة فيها عنصر التوكيد أيضاً، والنعت (مبين) فيه زيادة توكيد أيضاً.

أمَّا الطَّرح أرضاً فيبدو أنَّه كان طريقة متبعة في استبقاء العبيد المخطوفين في آبار معينة تُستخدم محطاتٍ لتأمين نقلهم. واليهود منذ قديم الزمان وهم النخاسون في هذه المهنة. وهم كانوا أجرأ النَّاس على سرقة الأطفال وبيع العبيد والقيام بأعمال «الخِصاء» التي راجت في العصور الوسيطة. ولعَلَّ الاشارة إلى ما كان من يُوسفَ ﴿ولقد همَّت به وهَمَّ بها... الآية﴾ [٢٤] ـ إنما كانت للتدليل على أنَّ يوسف قد مَرَّ من عملية بيع العبيد دون أن تجرى عليه عملية «الخصاء». وهي إشارة بالغة الأهمية وبخاصة حين تُقرن إلى حقيقة أنَّ المسلم إذا هَمَّ بالمعصية ولم يفعلها فلا تُكتب عليه.

اقتلوا: فعل الشرط مجزوم بحذف النون من آخره لأنه من الأفعال الخمسة. والتقدير: إنْ تقتلوه يخل.

يخُل: جواب الشرط مجزوم بحذف حرف العلة من آخره.

تكونوا: معطوف على (يخل) والواو اسم الكون.

قومًا: خبر الكون منصوب.

صالحين: نعت منصوب (جمع مذكر سالم).

والصَّلاح في عُرف هؤلاء الاخوة إنما هو المصلحة وتحقيق المنافع والأهداف الدنيوية. ولذلك فإن فهمهم لمقاييس التقوى إنما هو فهم مقلوب.

﴿قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجُبِّ يلتقطه بَعضُ

السَّياره إن كنتم فاعلين﴾ [١٠].

وإذا كان التخلص من يوسف في الطريقة الثانية ممكناً فهذا بالنسبة لهم أهون الشرين. ولما كان هذا الخيارُ قد وُضِع مع خيار أصعب فإنَّ درجة الاغراء بإنفاذ هذا الخيار قد كانت عالية. وإذن يكون الجمهور في مناخ من يفكر في الطريقة الأهون بديل يظل في دائرة.
الحيرة: يفعل أو لا يفعل. ومن يدري لعله لو كان القائل قد أصَرَّ على طريقة واحدة في القتل لربما كان الأخوة قد اقتتلوا فيما بينهم ولربما كان فيهم صرعى وضحايا. ولكنَّ اللهَ غالب على أمره.

والنَصُّ على التقاط بعض السَّيارة له كان دليلاً على أنَّ هذا الإلقاء في غيابة الجُبِّ قد كان طريقة مخصوصة في بيع الرقيق وحملهم إلى بلاطات المتنفذين في مصر. ولو كان غير ذلك لربما ملأ يوسف الأرضِ صياحاً ولربما كان تمرَّد بطريقة أو بأخرى ـ ولكنه لم يفعل.
قال تعالى: ﴿قالوا يا أبانا مالَكَ لا تأمَنَّا على يُوسفَ وإنَّا له لناصحون﴾ [١١].

صيغة السؤال تشي بما يمكن أن يبيتوه. وهي ظاهرة تتحدث عن نفسها في سياق آخر، سياق المنافقين الذين كانوا يأتون إلى رسول الله ﷺ ويشهدون الله على ما في قلوبهم وهم كاذبون. قال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يَعلمُ إنَّك لرسولهُ واللهُ يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون﴾ [المنافقون: ١].
قال تعالى: ﴿أرْسِلْه معنا غداً يَرتَعْ ويلعب وإنَّا له لحافظون﴾ [١٢].

وهذه التأكيدات من تلك البضاعة أيضاً. والرَّتع[١] واللعب أمران

---

(١) يذكر ابن النحاس أنَّ (نرتعْ) بالتسكين تعني السعي بينا (نرتَع) بكسر العين من الرعي وهي إحدى القراءات. انظر إعراب القرآن جـ ٢ ص ١٢٨.

يحبهما الطفل ولا يقوى على مغالبتهما وبخاصة إذا كان الأب شيخاً وكان فارقُ السِنِّ كبيراً. وواضح من السِّياق أنَّ يعقوبَ لم يأمن هؤلاء على يوسف. ولكن يبدو أنَّ إلحاحَ يوسف قد كان عظيماً. ومن يدري لعَلَّ أُمَّ يوسف قد دخلت في الحديث كما تدخل الامهات من باب العاطفة المتعجلة وأخذت تضرب على وتر قديم من أنَّ زوجَها لا يخرج إلى «الفُسَح» والسِّياحة وأن ابنها لا يرى الشمس ولا يلعب ولا يرتع كما يفعل الأطفال في مثل سِنِّه وأنَّه لا بُدَّ وأن يخشوشن حتى يصبح رَجُلاً ـ ولم يَدُر بخلَدِها قَطُّ أنَّ فظاظة القلوب تحمل الأخ أن يقتل أخاه أو يبيعه بيع العبيد للأغراب. ولعلَّ هذا ما يفسر كيف أنَّ يعقوب وحده ظَلَ متأسِّفاً على هذه الغلطة التي قد أفلتت منه في وقت لا نكاد نسمع فيه شيئاً عن تفجع الأم بعد تقادم الزمان. ومن يدري لعلَّها كانت قد قدَّرت أنَّ الذئب أكل يوسف كما روى وزوَّر الأخوة ـ وبذلك تكون قد أزاحت عن قلبها هموم الأفكار المتضاربة ووجوه الاحتمالات الكثيرة والمصير الغامض.

قال تعالى: ﴿قال إني ليحزُنُني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ★ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عُصبة إنَّا إذاً لخاسرون ★ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجُبِّ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ [١٣ ـ ١٥].

وأنتم عنه غافلون جملة حالية. وصاحب الحال هو الضمير في يأكله العائد إلى يوسف. وقوله (عنه) قبل (غافلون) زيادة في تركيز الحديث على يوسف قبل الاهتمام بأي اعتبار آخر. فكيف وقد ضيعوه؟ إن جَوَّ المقابلات والمفارقات يبدو رهيباً.

وأخاف أن يأكله الذئب: إشارة إلى ما كانت المنطقة من أحراش هي مرتع الحيوانات المفترسة. وتقديمه الأكل على الذئب بلاغة في التركيز على الخوف من التصفية الجسدية ليوسف أكثر من الاهتمام بالوسيلة التي

كانت ستكون موضع التنفيد.

وتجدر الاشارة إلى أن توراة عزرا الكاتب تتحدث عن الخوف من «وحش ردىء»[1] بما يعكس أنهم لم يعرفوا الكتابَ إلاَّ أمانيَّ.

والدليل على أن الاخوة قد كانوا على حظٍّ عظيم من الغباء أنهم تعلَّقوا بما ذكره يعقوب على سبيل صرف الأنظار عن تخوفه منهم شخصياً.

قوله تعالى: ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه. . .﴾ جملة بالغة الإيجاز والحذف وتكثيف المعاني والمشاهد والأحداث[2]. إنَّ بين الذهاب به وبين الإجماع على أن يكون في غيابة الجب ـ ساعاتٍ طوالا من الارهاق الفكري والتعقيدات الأمنية والمداولات الكثيرة وربما الآراء المتناقضة. وما كان أحسنَ لفظة (فلما) هذه التي جاءت لتحقق في الاشباع اللفظي للألف ما يعكس مناخ الاستغراق الزمني في هذه السَّاعات الثقيلة المؤرِّقة (بكسر الراء المُضعَّفة).

وواضح أنَّ القارىء يقوم بتخيل أجواء التآمر الكالحة كُلٌّ بقدر ما يلهمه خيالُه وتُمدُّه معطياته الثقافية ـ بما يتمم الجملة التي ظلت مُقدِّمةً تستوجب نتيجة. وهذه النتيجة قد حصل التيقن من تحققها على ضوء الشقِّ الآخر من الآية ﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾.

يقول أبو جعفر الطبري تعليقاً على الآية الكريمة:

---

(١) انظر: سفر التكوين. الاصحاح السابع والثلاثون (ص ٦٣).

(٢) وقد عَلَّم البلاغيون على مواضع سموها المجاز المرسل فيها حذف إيجاز وتكثيف منها: قال تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ يوسف ٢٨ والمقصود أهلها. وقال تعالى على لسان صاحب يوسف في السجن ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ [يوسف ٣٦]. أي أعصر عنباً ثم يكون خمراً. انظر كتابنا: من أساليب البيان في القرآن الكريم. (مكتبة الرسالة الحديثة. عمان: ١٩٨٣) ط٢ ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(وفي الكلام متروك حذف ذكره، اكتفاء بما ظهر عما ترك وهو ﴿فأرسله معنا﴾ فلما ذهبوا به وأجمعوا، يقول، وأجمعوا رأيهم، وعزموا على أن يجعلوه في ﴿غيابة الجب﴾[1].

والآن يطرح نفسَه السؤال التالي: هل كان الوحي إليه أمراً تنزل به الوحي جبريل عليه السَّلام فحصلت لدى يوسف طمأنينة من نوع مُعيَّن؟ أم هل كان الوحي إليه أفكاراً متلاحقة كأنها حلم اليقظة جعلت الصبي يطمئن إلى قضاء الله وقدره بأعصاب حديدية؟ أم قد كان الوحي إليه حُلماً جاءه في المنام ورأى فيه يعقوب وطمأنه أو رأى فيه رسولنا ﷺ قبل أن يولد ويبعث بما يمكن أن يكون البشرى؟ أم أن شريط الأحداث المستقبلية قد بدأ يمر بسرعة من أمام خاطر يوسف على نحو رأى فيه موقعة من المستقبل ومفاتشته لإخوته بالأمر وهم غرباء في أرض غريبة ونفوسهم منكسرة؟.

إنَّ كاتب هذا التذوق يرجح الأمر الأخير بحيث أنّ المستقبل كان يُروَّى في عيني يوسف وكأنه أحداث ماضية وهو أمر لا يقدر عليه إلاَّ الله تعالى الذي يحدُّ الزمان والمكان ولا يحدَّانه. ويرجع أن يكون رسولنا محمد ﷺ كان يتمثل له في المنام (قبل أن يولد) لأن الشيطان لا يتمثل على صورته ﷺ، بما يزيده طمأنينة.

ولعَلَّ ما يدفع المتذوق إلى مثل هذا الاعتقاد هو ثقة يوسف فيما كان يطمح أن يفعله ويُحبُّ أن يفعله ويطلب أن يفعله ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ [٥٥].

ومتى كان ذلك؟ كان في أول لقاء مع الملك ومن مكان السِّجن رأساً. ولو لم يكن يوسف يعرف مكانه من شريط الأحداث ما كان عازماً على أن

---

(١) تفسير الطبري للآية جـ ١٥ ص ٥٧٣.

يقفز إلى أعلى مناصب الدولة وأكثرها حساسية وقت الظروف الاقتصادية الصعبة. ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾. تلك جرأة ما كان ليقدر عليها لو لم تكن النهايات قد رُوِّيت له بصيغة (كان) وأرِيَ موقعه منها.

ولأنَّه قد كان على حظ كبير من الألمعية والذكاء فكأنه قد أبصر أن شريط الأحداث قد ظلت تدور دواليبه على نحو كانت أفلامُه وخاناته فارغة فعرف وهو الذي أوتي العلم والحكم وتأويل الأحاديث أنَّ النهاية قد كانت بعد ذلك. منها هو يتوجه إلى الله تعالى بهذا الخطاب ﴿. . . توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [١٠١].

وهـذه اشـارة بالغة الدَّلالة. وإذا كان يوسف يتمنى أن يموت على الإسلام أفلا يكون ذلك في الدَّلالة البالغة على أنَّ الإسلام قد كان أسمى أمنية يتمنى كل نبي سابق أن تتحقق؟.

وواضح أنَّ هذه الدعوة لم تُثبتها توراةُ عزرا الكاتب لأنها لا تُرضي غرور يهـود وأكـاذيبهم وأمـانيهم وتعلقهم بالأمجاد الواهمة. ولو لم يكن عنـدهم إلَّا إغفال هذه الأمنية لكفاهم إثماً أن يكونوا في موضع الخائن للأمانات والنصوص والوقائع والحقائق.

قال تعـالى: ﴿وجـاءوا أباهم عِشاءً يبكون ★ قالوا يا أبانا إنَّا ذهبنا نستبق وتـركنـا يُوسفَ عند متاعنا فأكله الذئب وما أنتَ بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين ★ وجاءوا على قميصه بدم كذِبٍ، قال بل سُوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ [١٦ ـ ١٨].

جاءوا: فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو فاعل.
أباهم: مفعول به منصوب وهو مضاف والهاء مضاف إليه والميم للجماعة.
يبكون: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة والفاعل الواو والجملة الفعلية في محل نصب حال وصاحب الحال ضمير

الرفع في جاءوا.

عشاءً: ظرف زمان منصوب. وتقديم الظرف على الحال دلالة على أهمية التوقيت في إنجاح تمرير المؤامرة. وحتماً كانوا أخَّروا الرواح إلى العشاء حتى تكون «فحمة» العشاء فيكون الوقت ملائماً للحديث عن تلصص الذئاب وخروجها من أوجارها بما يجعل يعقوب يقبل حيثيات الادِّعاء.

ثم إنَّ ملامحهم وقت العشاء تجعل من التمثيل أمراً ممكن التمويه. وفوق ذلك كله فإنَّ «هجوم» الليل يجعل أمر «تمثيل» الجريمة على الطبيعة أمراً غير ممكن على الفور من جانب يعقوب أو من قد يتبرع ليكون في خدمته في هذا الأمر.

وإذا كان وقت الرحيل قد كان عشاءً فهذا يعني أنَّ غيابة الجُبِّ قد كانت ملجأ تقي يوسف من الذئب على حقيقة الأمر. وما نظن أنَّ الذئب وقد شمَّ رائحة الفتى يتجرأ على مهاجمته من فوق ماء البئر. وهذا يؤكد أنَّ البئر قد كان فيها المياه والمياه العميقة أيضاً. وهذا يلغي ما تقوَّلته توراةُ عزرا من أنَّ (البئر كانت فارغة ليس فيها ماء)[1].

وهذا ما لمحه المفسرون المسلمون. فكان مما أورده الطبري (وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها)[2]. وفي تفسير غيابة الجب يقول قتادة: ﴿وألقوه في غيابة الجب﴾ يقول: (في بعض نواحيها)[3] والجب: بئر[4].

(ما أنت بمؤمن لنا): ما أنت بمصدِّق لنا ولو كنا من أهل الصِّدق الذين

---

(١) سفر التكوين. الاصحاح السَّابع والثلاثون.

(٢) تفسير الطبري جـ ١٥ ص ٥٧٤.

(٣) ذاته ص ٥٦٦.

(٤) ذاته وذاتها.

لا يتهمون، لسوء ظنك بنا، وتهمتك لنا[1].

مـا: نافية تعمل عمل ليس.
أنـت: ضمير رفع منفصل مبني على الفتح في محل رفع اسم ما.
بمؤمنٍ: جار ومجرور. الباء زائدة. مؤمن: مجرور لفظاً منصوب محلاً خبر ما.
كنا صادقين: كان واسمها وخبرها.

قولهم (فأكله الذئب) طريقة للتخلص من يوسف بالكُلبة. ولو كان قد افترسه لربما أبقى من فريسته (الذئب) شيئاً. وفي هذه الحالة كان يمكن جمع عظامه وعمل ترتيبات لدفنه. ولذلك فقولهم (فأكله) أنه لم يبق ولم يذر.

قول يعقـوب (والله المستعـان على ما تصفـون) إشارة واضحة إلى تكذيبهم وعدم الانخداع بمسلسلات أكاذيبهم ومخادعاتهم وتمثيلياتهم.

ثم هم قد أتـوا ببقع من الدم على قميصه؛ ولكن هل يأكل الذئب الجسد دون أن يمزق القميص بالأسنان. فأين أثر عمل الأسنان؟ ولذلك فتروي كتب التفسير أن يعقوب قال: (إنْ كان هذا الذئبُ لرحيما. كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه؟)[2].

ثم إن بقع دم الإنسان غير بقع ودم الشاة أو السَّخلة[3] ومن يدري فلعلَّ يعقوب كان على درجة عالية من قوة الشَمِّ والتفريق بين رائحة دم الإنسان ودم الحيوان لا سيما وأن التلطيخ بالدم قد كان حديث عهد. أم ترى إشارة القـرآن الكـريم إلى قُوَّة حاسَّة الشَمِّ عند يعقوب بعد جيل تقريباً ﴿ولما

---

(١) تفسير الطبري جـ ١٥ ص ٥٨٠.
(٢) ذاته ص ٥٧٩.
(٣) ذاته ص ٥٧٨.

فصلت العيرُ قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ [٩٤] ـ إنما هي للمتذوق دلالة على أن يعقوب قد كان فَرَّق في الشَمِّ ما بين بقعة الدم الإنساني وبقعة الدم «الخروفي»؟ أغلب الظن أن يكون ذلك هو في البلاغة التي تُراد.

وقول يعقوب (أنفسكم) بجمع القلة دون الكثرة اشارة إلى تقليلهم في عينه وتوهينه لمكائدهم.

وقول يعقوب (فصبر جميل) تقديره: فصبري على ما فعلتم بي في أمر يوسف صبر جميل، أو فهو صبر جميل[1]. فصبري: مبتدأ (مضاف إلى ياء المتكلم) صبر جميل: وخبر وصفة.
والصبر الجميل هو الصبر الذي لا جزع فيه[2].

قال تعالى: ﴿وجاءت سَيَّارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسرُّوه بضاعةً والله عليم بما يعملون﴾ [١٩].

وما أحسنَ قولهَ تعالى: ﴿وجاءت سَيَّارةٌ﴾. إنَّ لفظة (سَيَّارة)، علاوة على ما تؤديه من دلالة القافلة، فهي «الأمل» المعقود في تحرك دائرة الضوء على يوسف وفي تحريك القضية العادلة وفي كسر هذا الصمت الرهيب الذي رانَ على المنطقة بأسرها. ومن يعرف سكون البئر والهواء المشبع بالرطوبة النسبية من فوقها والصمت الرهيب الذي يرافق الماء ليلاً ليعلمُ دلالة الذي نقول.

ولو أنَّ (السَيَّارة) قد كانت تحمل مصابيح الكهرباء في تحركها لكانت في ظلمة هذا الليل، ليل الجريمة والمؤامرة، ليل خيانة الماء والخبز

---

(١) تفسير الطبري جـ ١٥ ص ٥٨٤. وانظر: إعراب القرآن جـ ٢ ص ١٢٩.
(٢) ذاته وذاتها. وانظر: التفسير الكبير جـ ١٨ ص ١٠٣.

والملح ، وكأنها الطائرة المضيئة في أجواز الليل الأليل . ولفظة (سَيَّارة) في هذا المقام ما لحسنها نهاية . إنَّ المؤامرة قد كان «العَدُّ التنازلي» لتنفيذها قد بدأ في وقت كانت العناية الإلٰهية قد رَتَّبت من وراء الغيب تسييرَ قافلة في طريقها إلى المكان ربما بعد نصف ساعة على الأكثر. إنَّ ألطافَ الله تعالى قد كانت حتماً أثلجت من يعقوب الصَّدر وأشعرته بالأمان في الوقت الـذي كان الأخـوة فيه جادين في تقـديم الأدلة والقرائن وحلف الأيمان المغلَّظة (بتضعيف اللام وفتحها) وافتعال الولولات وعذابات الفراق .

ولهذا كانت صدمةُ الإخوة كبيرة فيما نظن بسبب ما رأوه من إغلاق باب الحوار من جانب يعقوب واستمساكه بمقولة لا يعدوها ﴿بل سَوَّلت لكم أنفسكم أمـراً﴾ . إنَّ الشجـاعة والتماسك النفسي لم يخونا يعقوب عند الصَّـدمة الأولى ولكنَّ الشجاعة والتماسك قد خانتاه وهو يستشعر فقدان يوسف وهو في أحلك درجات الشيخوخة ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضَّت عيناه من الحُزن فهو كظيم﴾ [٨٤] .

ومثل هذا الأمان الإلٰهي الذي يتنزل على القلوب الوالهة في لحظات الاستيحاش بالفقد ينبئنا به الله تعالى حين يتحدَّث عن أُمِّ موسى في هذه البلاغة الفائقة التي عَزَّ نظيرُها في أيَّةِ لُغة من لغات العالم : ﴿وأصبحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارغـاً، إن كادت لتُبدي به لولا أن رَبَطنا على قلبها لتكونَ من المؤمنين ★ . . . فرددناه إلى أُمِّه كي تَقَرَّ عينُها ولا تحزن ولتعلمَ أنَّ وَعدَ الله حَقٌّ ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون ★ ولَّما بلغ أشدَّه واستوى آتيناه حُكماً وَعِلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ [القصص : ١٠ ـ ١٤] .

إنَّها موازاة تامَّة بين حياة يوسف وحياة موسى والمعادلة الإلٰهية ذاتها تؤكد كينونتها ﴿ . . . ولتعلمَ أنَّ وَعدَ الله حَقٌّ ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون ★ ولمَّا بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً ★ وكذلك نجزي المحسنين﴾ [القصص : ١٣ ـ ١٤] .

وهي ذاتها القاعدة التي كانت تكفلت يوسف وكفالته: ﴿. . . واللهُ غالِبٌ على أمره ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون ★ ولمَّا بَلغَ أشُدَّهُ آتيناه حُكماً وعِلماً ★ وكذلك نجزي المُحسنين﴾ [يوسف: ٢١ ـ ٢٢].

إنَّ هذه المُـوازاةَ التَّامَّة والقاعدةَ الإلٰهيةَ الثابتةَ هي التي تُجيب عن القرائن الحقيقية للآيات التي تكون تعليقاً خارجاً عن سِّياق السَّرد وبناء الحُبكـة القصصية. وإنَّ هذه المُـوازاه التَّامَّة لتفسر الآية الكريمة التاليةَ أحسنَ تفسير وأبينه: ﴿حتىَّ إذا استيأسَ الرُّسُلُ وظَنُّوا أنهم قد كُذِبوا جاءَهم نَصرُنا فَنُجِّيَ من نشاء، ولا يُرَدُّ بأسنا عن القوم المجرمين﴾ [يوسف:١١٠].

إنَّ الحـالـةَ النفسيةَ التي تَردَّى إليها يعقوبُ في سِنِّ الشيخوخة وهو يستشعر فقد يوسف بمثل رَنَّةِ الأسى هذه ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضَّت عينـاه من الحُـزنِ فهو كظيم﴾ [٨٤] وظنُّه أنَّه قد كُذِبَ (بضم الكاف وكسر الذال المعجمة وفتح الباء) من أبنائه «العُصبة» ولم يعـودوا يفهمـون عنه قولاً ﴿ولمَّا فَصَلَت العِير قال أبوهم إني لأجدُ ريحَ يوسفَ لولا أن تُفنِّدون ★ قالوا تالله إنَّك لفي ضلالك القديم﴾ [٩٤ ـ ٩٥].

جاءَه نَصرُ الله ﴿فلما أن جاءَ البشيرُ ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيرا. قال ألم أقل لكم إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [٩٦].

إنَّ القرينةَ لهذه الآية الكريمة لتكتسب من خلال الموازاة التامَّة حقيقة مقصدها ومنحاها. وإذن فلا مجال ليظنَّ ظانٌّ أنَّ (كُذِبوا) قد تعني الرُّسل من رَبِّهم كمـا قد نفت ذلك بشدَّة عائشةُ أم المؤمنين (رضي الله عنها) وكـانت تُصـرُّ على قراءة (كُـذِبُّـوا) (بتضعيف الباء وكسرها)[1]؛ إذ كيف ينسرب هذا الظَنَّ إلى الوهم في الوقت الذي كان يعقوب يردِّد في كل مَرَّة

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير للآية الكريمة وانظر: إعراب القرآن ج٢ ص١٦١.

﴿. . . قال ألم أقل لكم إني أعلمُ من الله ما لا تعلمون﴾ [٩٦]. إنَّ الاستعانة بالله والوثوق بنصره قد كان دائماً البرقَ الذي لا يخلُبُ والغيث الذي لا يتخلَّف. وقد كان النصرُ دائماً هو سَيِّد المعركة لصالح الحَقِّ ضد قوى الشَرِّ والإجرام.

ما كان أحسنَ الدراسة الأسلوبية لآي القرآن الكريم. إنَّ مثلَ هذه الدراسة لتأتي بالمختلف في عين الوحدة فتظهر الأبعاد القريبة والبعيدة على نحو تبدو الحُبكات الصغيرة والكبيرة وخطوط الموازاة والتماس والمعارضة ـ على نحو واضح، ونمط كامل النمو، مستوِ الخِلقة، مكتمل الأبعاد.

قوله تعالى: ﴿فأرسلوا واردهم﴾ إشارة إلى الترقب كبيرة. فكما أنَّ هؤلاء جميعاً قد كانوا يترقبون الماء لعظيم حاجتهم إليه في السفر وسقي إبلهم المكدودة وحميرهم المرهقة؛ كان يوسفُ في الطرف الثاني بالغ الترقب للفرَج (بفتح الراء). ومن فوق هذين الطرفين وفي سماء المنطقة كانت عيون الملائكة مشدودةً في الملأ الأعلى تترقب هي بدورها خيوط هذه المأساة. ولو أنَّه يُتاح لنا يوم القِيامة الإطِّلاع على أفلام من التصوير البطيء لصورة كُليَّة لمجريات الأحداث لكُنَّا نرى الخطوة الواحدة من خطوات (الوارد) في عِشاء هذا الليل تعدل القناطير المقنطرة من الترقب والمتابعة ـ إن جاز التعبير.

وما كان أحيلاها جملة ﴿فأدلى دَلوَه﴾. فعلاوة على موسيقاها الحلوة وجناس حروفها ودلالاتها قد جاءت في قِمَّةَ التكثيف الجمالي.

ثم ما كان أحيلاه قول الوارد ﴿يا بُشرى﴾. لقد بلغت لحظاتُ الترقب غايتَها. وليس الترقبُ من جانب الوارد فهو ليس على عِلم بشيء وإن كان قد كان خائفاً بحكم فحمة العِشاء والحركات الخفية التي كانت تقوم بها الملائكة من وراء عيون البشر؛ ولكنَّ الترقب من جانب الملائكة الذين

كانـوا يبصرون أرض التحركات بالكامل في نظرة كُليَّة في ذات الوقت. ولعلَّها الإشارة إلى ما كان من الملائكة في مثل هذه الأحداث حين يقول الله تعالى في لغة فيها التهييج لرسوله ﷺ ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كُنتَ لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يَمكُرون﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقول الوارد (يا بُشرى) فيه دلالة على أنَّه قد كان يترقب هو الآخر بدوره مفاجآت غير منظورة يحسُّها إحساساً فطرياً ولا يكاد يجد لها تعليلاً. ومن هذه القـرينـه؛ فإنَّ كاتب هذا التـذوق ليستبعـد أي احتمـال يجعل من (بشرى) غير الانفعال بالمسرَّه[1]. ثم إنَّ القول إنَّ بُشرى اسم رجل في القافلة مردود لغة ونحواً. وإذا كان بُشرى (الرجل) قد نُودي عليه من بين رجـال القـافلة فلمـاذا يصفهمـا القرآنُ بقوله: ﴿وأسرُّوه بضاعة﴾ بصيغة الجمع؟ إنَّ ذلك لا يتسق حتماً ولا بُدَّ أن تكون البشرى هي قطع صمت الرهبة والتخوف وظلمة الليل والبئر وقد كان.

ولفـظة (بُشرى) على ما فيها ألف مقصورة تتساوق وهذا الاسترواح الذي يستشعره الماتح حين يتاح له أن ينتصب ظهره وتمتد قامته إلى أعلى ويأخذ شهيقاً من هواء نقي فيه نسبة الاكسجين عالية بسبب ما يكاد يشعره الماتح فوق بئر الماء من الشعور بالاختناق بسبب من زيادة الرطوبة النسبية الناشئة عن تبخر الماء فوق البئر.

وقـولـه تعالى: ﴿وأسرُّوه بضاعة﴾ من السِّرار والمسارَّة وهي الخفاء والمخافتة. وهذه الجملة بالغة الحذف والإيجاز والتكثيف. وهي ما يمكن أن يسمى الآن بلغة القطارات: قطار الرُكَّاب وقطار البضاعة. وإذن يكون التركيب: وأسرُّوه في قافلة البضاعة[2]. ومن يدري لعلَّ ذلك كان بإلحاح

(١) يذكر الطبري في تفسيره للآية أنَّ بشرى كان في بعض الأقوال اسم رفيق للوارد في القـافلة. ويستبعـد ابن النحـاس تسمية الغـلام لأن أسلوب القرآن إنما هو استخدام الكناية. انظر إعراب القرآن جـ ٢ ص ١٣٠.

(٢) يقول ابن النحاس ان (بضاعة) نصب على الحال أي اشتروه جاعلية بضاعة أو أسرُّوه مبضوعاً. انظر إعراب القرآن جـ ٢ ص ١٣٠.

من يوسف نفسه إذ يكون الفتى قد قَدَّر أنَّ إخوته لا بُدَّ وأنهم يطوفون بالمكان في دوريات منتظمة لتأمين تصفيته جسدياً.

وقوله تعالى: ﴿والله عليم بما يعملون﴾ تعليق خارجي على سير الأحداث وتطورها من داخل. وهو تعليق مقصود به رسولنا ﷺ وأمَّته. منهم التالون لكتاب الله تعالى بلسان عربي مبين وهم الوارثون للخلافة الإلٰهية على الأرض. وهو تدخل من ربِّ العالمين فيه تهييج للسامع والقارىء. وهو تأكيد أنَّ خيوط النسيج في بناء الحُبكة قد كانت تتشابك وتتعقد تحت بصر الله تعالى وعينه التي لا تغفل ولا تنام. وإذن لم تتطور الأحداث في هذا الاتجاه من غير ما «تحوط» من جانب الملأ الأعلى. وهذه الاضاءة للمؤمن تعطيه من الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره إحساساً يفوق مجلدات من الشرح وتقريب المعاني.

قال تعالى: ﴿وشَرَوهُ بثمن بَخسٍ دراهمَ معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهدين﴾ [٢٠].

شروه: باعوه[١].

دراهم: بدل من ثمن[٢].

إنَّ عِدَّة الدراهم كما يلمحها كاتب هذا التذوق من خلال «بطولة» العدد ٧ هي سبعة.

وما يراه كاتِبُ هذا التذوق أنَّ تعميةَ العدد بهذا الشكل والإشارة إلى هذه الضآلة في القيمة والضآلة في الاحتفاظ لهي بالغة الدلالة في تعميق الإحساس بالموقف وبخاصة حين نقابل ذلك بدرجات الحرص والحنان

---

(١) انظر: تفسير الطبري جـ ١٦ ص ٨.

(٢) انظر: إعراب القرآن جـ ٢ ص ١٣٠.

التي كان يبديها أبوه يعقوب ﴿قال إني ليحزُنُني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ [١٣]. إنَّ الجمال الذي يفعله التعميم في تعميق صورة الإحساس يَفضُل التخصيص والتفصيل، وبخاصة في بناء السِّياق العام.

وما يراه كاتبُ هذا التذوق أنَّ الضمير في شَرَوْه والضمير في (كانوا) إنما يعود إلى الذين قد كان يُوسفُ معهم في رحلتهم إلى مصر، وبذلك يكـون الكلامُ عن الذي اشتراه من مصر لامرأته متسقاً. إنَّ الظنَّ الذي أوردته بعض الروايات من أنَّ الذين باعوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين إنما هم اخوته؛ يراه كاتب هذا التذوق قد دخل على هؤلاء الـرواة من تعـلقـهـم برواية توراة عزرا الـتـي تخـلط بين الـمـديانيين والاسماعيليين وإخوة يوسف على نحو مضطرب متهافت بما يعكس أنَّ هذه التوراة ما كانت إلاَّ كتابات البشر[١]. إنَّ الحديث عن إخوة يوسف وعودتهم من المؤامره كان قد انتهى[٢] وابتدأت فصول جديدة وصفحات جديدة من المأساة.

أمَّا لماذا كانوا فيه من الزاهدين؟ لعلَّهم قد رَقَّت قلوبُهم عليه لِمَا بدا عليه من أمـارات الإرهـاق والتعب وسـوء التغذية وتغير المناخ. فبدا في منـطقهم ومن وجهـة نظرهم أنَّ سيِّداً يؤويه في بيته لهو خَيرٌ له ولهم من استبقائه وقتاً أطول على حساب صحته وتدهورها وعلى حساب ثمنه أيضاً. وهذا التصوُّر يسيرُ في موازاة تامَّة مع قِصَّة موسى عليه السَّلام. قال تعالى: ﴿وحَرَّمنا عليه المراضِعَ من قَبلُ فقالت هل أدُلُّكم على أهل بيت يَكفُلُونَه لكم وهم له ناصحـون﴾ [القصص: ١٢]. إنَّ تدهـور الصِحَّة في كلا الـطفلين قد كانت تستدعي «أهل بيت» يكفلونه. ولهذا فقد كان القرآن

---

(١) انظر: سفر التكوين: الاصحاح: ٣٧ (ص ٦٣).

(٢) انظر: سورة يوسف الآية: ١٨.

الكريم يتحدث عن علاقة يوسف بامرأة العزيز بهذه الكناية ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه. . . الآية﴾ [٢٣].

إن المعادلة المرسومة لتأمين نُمُوِّ الطفلين قد كانت (الطفل البيت) في مشاركة نشطة وانتماء كبير.

ولا تُحدِّثنا النصوصُ بشيءٍ عن ذكريات يوسف عن هذه الرِّحلة وما تَعَّرض فيها لمشَاقَّ وأهوال. ولا تحدِّثنا النصوص بشيء عن علاقات يوسف مع هذه القافلة حين صار (يوسف) في أمانة (خزائن الأرض) ومركز الاستثمارات والمبادلات التجارية في المدينة. ومن يدري لعله قد كان أكرمهم وبالغ في إكرامهم. إنَّ ذكريات الصِّبا ما كان أكثر علوقها بالذاكرة ولا بُدَّ أن كان يوسف وهو (الحفيظ العليم)[1] قد أثبت في ذاكرته كل انطباع عنهم. وأغلب الظَنِّ أن تكون هذه القافلةُ قد غدت في الرعاية الأولى في مصلحة التجارة الخارجية وميزان المدفوعات التجاري. بل لعلَّ هذه القافلة بالذات قد كانت المثل الأعلى الذي يُذكي فضول الأخوة «العصبة» للذهاب إلى مصر والمتاجرة معها. بل لَعَلَّ رجالَ هذه القافلة قد كانوا الأمناء الذين كَلَّفهم يوسف ليكونوا العيون والآذان على كُلِّ حركة ونَفَسَ (من التنفس) يأتيها الأخوة «العُصبة» وهم في غدواتهم وروحاتهم. ولعَلَّ هذا ما يجعل للاستشهاد بـ ﴿. . . والعيرَ التي أقبلنا فيها. . .﴾ [٨٢] في التَحدِّي المطروح على يعقوب ـ معنى. ولو كانت القافلة من الغرباء الذين تفرقوا في البلاد شذَرَ مَذَرَ ما كان ليكون لضرب هذا المثل من مقام. ولكن يبدو أن الألفة مع القافلة قد كانت كبيرة لدرجة كان باستطاعة يعقوب أن يترقب قفولها على طريق أوبتها ـ في الذهاب أو الإياب ـ ويناشدهم تحرِّي الحَقِّ والصِّدق. فإن كان هذا قد حَدَث فإنَّ أمر متابعة الأخبار عن يعقوب وعن أخيه من أبيه قد كان يوسف يستقيها ليس من «دردشته» مع اخوته كما

---

(١) انظر سورة يوسف الآية ٥٥.

تذكر توراة عزرا[1] وتابعها في ذلك د. أحمد عبدالحميد يوسف[2]؛ ولكن من خلال هذه القافلة التي كانت على وعي كامل بكل مجريات الأمور وأحاديث الأخوة «العصبة» وهمومهم في الرِّحلة الطويلة الشَّاقة. وهذا ما يُفَسر أنَّ يوسف ما كان ليلقي بالاً لإخوته أو ليشعرهم بأنَّهم على قَدْرٍ (بتسكين الدال) من الأهمية بالنسبة إليه ـ كما يتراءى من خلال النَسَق القرآني الكريم. قال تعالى: ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ★ ولمَّا جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم؛ ألا تَرَونَ أنِّي أوفي الكيلَ وأنا خير المُنزلين ★ فإن لم تأتوني فلا كيلَ لكم عندي ولا تقربون﴾ [٥٨ ـ ٦٠]. وإذا كانوا قد مُنِعَ (بصيغة المجهول) منهم الكيل [آية ٦٣] فكيف كان لهم ليحكموا أنه «يوفي الكيل وهو خير المنزلين»؟ إنَّ ذلك حتماً كان يكون واضحاً من تعامله مع القافلة التي كان مَديناً لها في الماضي والتي هي الآن تقوم له بمظلَّة من المتابعة ونقل الأسرار. بل إنَّ الإكرام الذي كانت تجده هذه القافلة مع يوسف هو الذي كان يضغط على أعصاب إخوته ليقولوا مثل هذا القول في اللهفة والتشوق إلى الرجوع والمتاجرة ﴿. . . قالوا يا أبانا ما نبغي، هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا، ونميرُ أهلَنَا، ونحفظ أخانا، ونزدادُ كيل بعير، ذلك كيل يسير﴾ [٦٥]. ومن أخبرهم أنَّ الكيل يسير إذا كانوا قد مُنِعَ (بصيغة المجهول) منهم الكيل لولا ما كانوا رأوه من تجارة أصحاب القافلة التي كانت تصحبهم والتي كانت موضع إغداق يوسف عليهم وإكرامه لهم في فنادق الدرجة الأولى والسياحية؟!

قال تعالى: ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مَكَّنا ليوسُفَ في الأرض وَلِنُعَلِّمه من تأويل

---

(١) سفر التكوين: الاصحاح التاسع والثلاثون (ص ٧٣).
(٢) انظر: مصر في القرآن والسنة ص ٦٤.

الأحاديث والله غالبٌ على أمره ولكنَّ أكثرَ النَّاس لا يعلمون ★ ولما بَلَغ أشدَّه آتيناهُ حُكماً وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين﴾ [٢١ ـ ٢٢].

وبـذلـك يكون قد أتيح ليوسف النشأة الأرستقراطية التي مَكَّنته من معرفة أسرار البلاطات وحديث رجالات الدولة وآداب السُّلوك والمنادمة. ولذلك فإنَّ انتقاله من السجن (المركزي) إلى أمانة ﴿خزائن الأرض﴾ لم يكن ليحتاج من جانبه إلى تكيف شخصي أو دورة تدريبية أو كان ليكون صدمة حضارية. العكس هو الصحيح. لقد ملأ المركز وزاد وبدا أنه قد نجح إدارياً أيضاً. ينبيك بهذا النجاح هذه الطاعة التي كان يبديها فتيانه له وتنفيذ أوامره ﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون﴾ [٦٢]. ولو كانت العلاقة رسمية جافَّة بين يوسف أمين الخزانة العامة وبين الفتيان لقال لهم بصيغة الأمر ﴿اجعلوا بضاعتهم في رحالهم﴾ وكفى. ولكنه أيضاً يطلعهم على مقصده من الأمـر وكـأنـه يستـطلع استحسـانهم وموافقتهم ورجاحة رأيهم وأخذ مشورتهم حين قال: ﴿لعلهم يعرفونها... الآية﴾.

أمَّـا الحـديث عن جزاء الإحسان بالإحسان فهو خطاب يجريه ربُّ العـالمين مع محمـد ﷺ وهو أمر يَسعَدُ به المسلمون ورثةُ هذه الرسالة الإسلامية الكريمة. وقد سبق اللَفت إلى هذه التنبيهات في مقدمة هذه الدراسة وما عَلَّم (بتضعيف اللام وفتحها) عليه أبو جعفر الطبري في هذا الشأن.

ثم بعد ذلك تنتقل السُّورة الكريمة إلى حديث المراودة. قال تعالى: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلَّقت الأبواب وقالت هَيْتَ لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ★ ولقد همّت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربِّه كذلك لنصرف عنه السُّوءَ والفحشاءَ إنَّه من عبادنا المُخلصين ★ ... الآيات﴾ [٢٣ـ ٢٩].

ومراودة يوسف عن نفسه قبل غلق الأبواب يعني أن المراودة كانت قد بدأت. وهذا يعني أن يوسف قد كان يتعرض منذ زمن إلى ضغوط من نوع خاص، ضغط المرأة اللعوب حين تتفنن في الإدلال بجمالها وحُليِّها وتتعلَّل بالعفوية تارة وبالغباء تارة وبالحياء المصطنع تارة أخرى. وحين يكون فارق السِّن كبيراً ولصالح المرأة، فإنَّ الرَّجُلَ (يوسف) قد كان حتماً في وضع مرير، ومرير جدَّاً. وإغلاق الأبواب قد كان مرحلة اليأس القاتلة والتفجير الأخير. وإذا كانت هي المنادية ولم تكن المبادَرَةُ من الرَّجل كما هو الشأن في الحياة الإنسانية فمعنى ذلك أنها قد خلعت عِذار الحياء بالكامل. وإذا كان جوابُ يوسف ﴿معاذ الله﴾ بلسان عربي مبين ـ في سياق الآيات القرآنية الكريمة؛ فحتماً فإنَّ قولَتها ﴿هَيْتَ لك﴾ إنما هي لسان عربي مبين أيضاً. وهذا في انسجام تام مع المقدمة التي مَهَّدت لمناخ القصَّة ﴿إنَّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ [يوسف: ٢]. وهذا ينفي أيَّة عُجمة أو ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم وفي هذه السُّورة بنوع أخَصّ. وإذا كان يوسف قد أضاف بلسان عربي مبين ـ على طريقة القرآن الكريم في السَّرد والعَرض والحكاية ﴿إنَّه رَبِّي أحسن مثواي، إنَّه لا يفلح الظالمون﴾ [٢٣]؛ فمن باب أولى أن كان هذا الردُّ عربياً على دعوة قد كانت باللسان العربي المبين أيضاً.

ومن هذه القرينة، فإنَّ كاتِبَ هذا التذوق لا يرى أيَّ مكان لتعلق بعض الرواة بعجمة هذه اللفظة ﴿هَيْتَ﴾ أو بقبطيتها أو بسريانيتها أو بعبرانيتها، أو حتَّى بحورانيتها[1]. إنَّ التوزيع الذي كان لسورة يوسف عن اللوح المحفوظ قد كان عربياً خالصاً باللسان العربي المبين. وما يَصدُق على هذه السورة الكريمة يراه كاتب هذا التذوق يَصدُق على القرآن الكريم

---

(١) انظر: تفسير الطبري جـ ١٦ ص ٢٧.
وانظر وجود القراءة لها في إعراب القرآن جـ ٢ ص ١٣٣. وانظر: معاني القرآن جـ ٢ ص ٤٠.

بأكمله[٢]. وهو الأمر قد شدَّد عليه أبو زيد القرشي المتوفى سنة ١٧٠هـ في لغة لا تحتمل التأويل:

(. . . ما حدثنا به المفضل بن محمد الضبي يرفعه إلى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم نافع بن الأزرق الحروريِّ إلى ابن عَبَّاس يسأله عن القرآن فقال ابن عباس: يا نافع: القرآن كلام الله عزَّ وجل خاطب به العرب بلفظها على لسان أفصحها فمن زعم أن في القرآن غير العربية فقد افترى. قال الله تعالى: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ وقال تعالى: ﴿بلسان عربي مبين﴾)[١].

وخير لنا وللحق وللقرآن الكريم وللعربية وللأمانة وللتاريخ أن نعود عن هذا الافتراء على القرآن الكريم بالظن أن هذه الألفاظ قد كانت أعجمية. إن اللغة العربية قد كانت ممتدة الجذور في تاريخ الشرق الإسلامي آلاف السِّنين قبل العبران وقبل اليونان وقبل الفرس البائدة والفرس المتعربة. فمن يكون على الآخر الدليل؟ المتأخر على المتقدم أم المتقدم على المتأخر؟ إنَّ عربيَّة اللسان القرآني الكريم إنما هي عربية كاملة في الألفاظ والتراكيب على حدٍّ سواء.

قال تعالى: ﴿واستبقا البابَ. . . الآية﴾ [٢٥].

لفظة «استبق» هذه ترقى لتكون مفتاح باب الشَرِّ الذي فُتح على يوسف. لقد أحبَّ أن يرتع ويلعب مع إخوته فكان أن غُيِّبَ (بصيغة المجهول) تحت ستار ﴿نستبق﴾ [١٧]، وهاهو وقد دخل في رهان التسابق

---

(١) ولكاتب هذا التذوق كتاب باسم (في التذوق الجمالي لما اشتمل على ذكر اللسان العربي من آي القرآن الكريم). وقد أشرنا إليه في حاشية هذا التذوق.

(٢) أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (ت ١٧٠هـ): جمهرة أشعار العرب (دار المسيرة. بيروت: ١٩٧٨) ص ٣ ـ ٤.

﴿واستبقا الباب﴾ فكان الخاسرَ. إنَّ حَظَّه مع السَّبق والتسابق قد كان قليلاً.

ثم إنَّ قصَّة سوق الشاهد من أهل امرأة العزيز على غير موعد مُسبَّق في جدول الزيارات ليسير في موازاة تامَّة مع قصة سوق الشاهد الذي جاء ينقذ موسى من ائتمار الملأ. قال تعالى: ﴿وجاء رَجُلٌ من أقصى المدينة يسعى قال يا مُوسى إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾ [القصص ٢٠]. ولو أنا أردنا الموازاة التَامَّة في جزئيات التفصيل لقلنا إنَّ الشاهد من أهلها والعزيز قد كانا في أقصى المدينة حين كانت امرأة العزيز قد بدأت تُعِدُّ (من الإعداد) «وليمة» المراودة.

قال تعالى: ﴿وقال نِسوةٌ في المدينة... ★ ... الآيات﴾ [٣٥].

إن هذه الاشاعات قد أصبحت في المدى البعيد لصالح يوسف. وها هن النسوة في البلاطات جعلن يتحرشن بيوسف بطريق أو بآخر بما يجعل يوسف أكبر في عيون المتنفذين في الحكم على عرش مصر. ولذلك فإنَّ الملك وقد أراد فتح مَلَفِّ القضية من جديد لقي شهادة جماعية من النسوة بطريقة لا تسمح بالتواطؤ على الكذب. ولم يكن أمام امرأة العزيز إزاء هذا الموقف العام إلَّا أن تنهار وتعترف وإن أثبتت أنها تنتمي إلى أصول لها فضلها وفيها الدم النبيل ومحبة الحق والصدق والجرأة في الاعتراف بالحق.

قال تعالى: ﴿وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بالُ النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ★ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء. قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحَقُّ أنا راودته عن نفسه وإنَّه لمن الصادقين ★ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين ★ وما أبرىء نفسي إنَّ النفس لأمَّارةٌ بالسُّوء إلَّا ما رَحِم ربي إنَّ

ربي غفور رحيم﴾ [٥٠ ـ ٥٣] .
حصحص الحق: تبين وظهر وبرز(١).

ومن كان أميناً على الأعراض فهو أولى أن يكون أميناً على الأموال وخزائن الأرض. وإذا كان كبار الموظفين في بلاط الملك كانوا يمرون في فترة تجريبية فحتماً فإن يوسف قد كان جاوز هذه المرحلة في عيني الملك لما كان قد حصل عليه من أوسمة الشرف والنزاهة والترفع عن الدنايا والسوء والفحشاء.

بقي أن نُشير إلى أنَّ محنة السِّجن قد كانت ليوسف نعمة في طيِّ نقمه. فلو لم يكن من أمر صداقته للخباز وللسَّاقي ما كان لِخَطِّ سَيرِ الأحداث ليأخذ هذه الوِجهة (بكسر الواو).

وأمَّا الدُّخول من أبواب متفرقة وأحسبها قد كانت سبعة بحكم ما قام به العدد سبعة من أدوار البطولة الثانوية فما أحسبه قد كان رَدَّ العَين والحَسَد كما أشارت إلى ذلك بعض كتب التفسير(٢). إنَّ هذا الأمر لا يتناسب وهذا الوصف عن يعقوب ﴿ولمَّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يُغني عنهم من الله من شيءٍ إلَّا حاجَةً في نَفسِ يعقوبَ قضاها وإنَّه لذو عِلمٍ لِمَا عَلَّمناه ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمون﴾ [٦٨]. إنَّه أغلبُ الظَّنِّ ـ قد بدأ يَشُكُّ (يعقوبُ) في أمرِ القافلة التي ترافقهم كُلَّ مَرَّة وتنفرد بالمكاسب

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير للآية.

(٢) انظر تفسير الطبري والقرطبي وابن كثير للآية ٦٧. وانظر: تنوير المقياس من تفسير ابن عباس (دار الكتب العلمية ببيروت) بدون تاريخ. ويعلق ابن النحاس على الروايات المختلفة ويقول: (أصح ما قيل فيه أنه خاف أن يدخلوا جميعاً فيبلغ الملك الأعظم أمرهم فيلحقهم منه مكروه أو يحسدهم من رآهم مجتمعين، ولا معنى للعين ههنا لأن بعده (وما أغني عنكم من الله من شيء). . . ) إعراب القرآن جـ ٢ ص ١٤٨. وانظر: معاني القرآن جـ ٢ ص ٥٠.



obeikandi.com

وحسن الضيافة دونهم. فكأنَّ يعقوبَ قد أراد أن يُضَيِّع على رجال القافلة ومخابراتها قُدرتَها على الرَّصد وملاحقتها للأنباء (جمع نبأ). فكانَ أن غَير هذا «التكتيكُ» من مألوف المعاملة وعجَّل في افتعال الصدام (من جانب يوسف) مع إخوته. وهو الأمر قد كشفه الله تعالى بمثل هذا الوضوح ﴿. . . كذلك كِدنا ليوسُفَ، ما كان ليأخُذَ أخاه في دِينِ المَلِك إلاَّ أن يشاءَ اللهُ. . . ★ الآية﴾ [٧٦].

ثم إنَّها ملاحظة بالِغةُ الدَّلالة على أنَّ تجمع يهود ما كان ليعود عليهم بخير وأنَّ نجاءَهم إنْ كان لهم ثَمَّة نجاء فإنما يكون من حيث تفرقوا في البلاد. وقد جرَّبوا التجمعَ عشرات المرَّات زمانَ الدولة الرومانية وكانت تَحُلُّ عليهم الكوارث والنكبات. وجرَّبوا ذلك مع مشركي العرب زمان محمد ﷺ فكان أن استأصل الإسلامُ شأفتهم. ولو أنهم يتدبرون القرآن الكريم لأخذوا العِبرة الكاملة ـ قبل فوات الأوان ـ إنْ كان ثَمَّة قد بقي منهم من نسل إخوة يوسف عليه السَّلام (من أبيه) أحد. وإني لفي شَكٍّ من ذلك مُريب.

ولمَّا كانت سائرُ الآيات في السُّورة الكريمة قد جُلِّيت (بضم الجيم وتضعيف اللام وكسرها) في معارِضَ كثيرةٍ من هذا التذوق، وفي تقاطعاتٍ مُتعدِّدة؛ فإنَّ هذا التذوقَ يكون قد استنفذ غايته، واستكمل شرائِطَه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رَبِّ العالمين

# ثبت المصادر والمراجع

**المصادر:**


- القرآن الكريم.
- ابن الأثير، ضياء الدين: المثل السائر. تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة (مطبعة نهضة مصر. القاهرة: **١٩٥٩م**).
- ابن حَيَّان، أثير الدين أبو عبدالله محمد بن يوسف: البحر المحيط (مكتبة النصر الحديثة ومطابعها. الرياض. بدون تاريخ) جـ **٥**.
- ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل: مختصر تفسير ابن كثير. اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني. ط ٧ (دار القرآن الكريم. بيروت: **١٩٨١م**) المجلد الثاني.
- ابن عبَّاس، عبدالله: تنوير المقياس من تفسير ابن عبَّاس (دار الكتب العلمية. بيروت. بدون).
- ابن النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل: إعراب القرآن. تحقيق: زهير غازي زاهد (مطبعة العاني. بغداد **١٩٧٩م**) جـ **٢**.
- ابن هشام، عبدالملك: السيرة النبوية. تحقيق: مصطفى السَّقا وزميليه (دار الكنوز الأدبية. بيروت. بدون تاريخ).
- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (دار الجيل. بيروت (مصوَّر عن نسخة المطبعة العثمانية. القاهرة: **١٣٢٩هـ**).




obeikandl.com

ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون. ط ٤ جـ١ . (دار الفكر ـ بيروت).
ـ الجرجاني، عبدالقاهر: دلائل الإعجاز. ط٢ (مكتبة القاهرة. القاهرة: ١٩٦١م).
ـ الرازي، الفخر: التفسير الكبير. ط١ (المطبعة البهية. القاهرة: ١٩٣٨م) جـ ١٨ .
ـ السجستاني، عبدالله: كتاب المصاحف: ط١ (المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٦م).
ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: محمود محمد شاكر (دار المعارف بمصر: ١٩٦٩م) جـ ١٦ .
ـ عزرا الكاتب: التوراة (جمعيات الكتاب المقدس المتحدة: مطبعة جامعة كامبردج. بريطانيا. بدون تاريخ).
ـ الفرَّاء: أبو زكريا يحيى بن زياد: معاني القرآن. تحقيق: محمد علي النجار.
(الدار المصرية للتأليف والترجمة. القاهرة ١٩٥٥م) جـ ٢ .
ـ القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب: جمهرة أشعار العرب (دار المسيرة. بيروت: ١٩٧٨م).
ـ القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (دار إحياء التراث العربي. بيروت: ١٩٦٦م) جـ ٩ .
ـ النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (دار إحياء التراث العربي. بيروت: ١٩٥٤م) جـ ١ .

# المراجع


- د. أحمد عبدالحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة (سلسلة اقرأ عدد ٣٧٣ (دار المعارف بمصر: ١٩٧٣م).
- سيِّد قطب: في ظلال القرآن. ط ٩ (دار الشروق: ١٩٨٠م) المجلد الرابع. ج ١٢.
- محمد المبارك: دراسة أدبية لنصوص من القرآن ط ٤ (دار الفكر، بيروت: ١٩٧٣م).
- محمد علي أبو حمدة: فن الكتابة والتعبير. ط١ (مكتبة الأقصى، عمان: ١٩٨١م).
- محمد علي أبو حمدة: في التذوق الجمالي لمعلقة امرىء القيس (دراسة نقدية إبداعية) (مكتبة الأقصى، عمان: ١٩٨٤م).
- محمد علي أبو حمدة: في التذوق الجمالي لما اشتمل على ذكر اللسان العربي من آي القرآن الكريم (دار الجيل، بيروت؛ مكتبة المحتسب - عمان: ١٩٨٤).
- محمد علي أبو حمدة: من أساليب البيان في القرآن الكريم. ط٢ (مكتبة الرسالة الحديثة، بيروت: ١٩٨٣م).